٢٠٠٢

مهرجان القراءة للجميع

مكتبة الأسرة

نجوم وأقلام

مصطفى أمين - نجيب محفوظ - يوسف إدريس - جلال الدين الحمامصى
أحمد بهاء الدين - كامل الشناوى - إحسان عبد القدوس - يحيى حقى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الأعمال الخاصة

نوال مصطفى



نجوم وأقلام

نجوم وأقلام

اسم العمل الفنى: نجوم وأقلام

التقنية: ألوان جواش على ورق

المقاس: ٣٥ × ٢٥ سم

عمرو فهمى

رسام كاريكاتورى غزير الإنتاج، بدأ حياته الفنية على صفحات جريدة الأخبار، ورسم العديد من أغلفة الكتب لدور النشر المختلفة. وهو يجيد رسم الكاريكاتير الاجتماعى الهادئ الذى عرفته مدرسة الأخبار على يد الفنان الكبير رخا.

وفد الفنان من الإسكندرية إلى القاهرة حاملاً ريشته وأفكاره ليخوض فى معترك الحياة الثقافية والفنية، فرسم لصحف ومجلات عدة فى مختلف بلدان الوطن العربى.

محمود الهندى

نجوم وأقلام

نوال مصطفى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢
مكتبة الأسـرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
سلسلة الأعمال الخاصة

نجوم وأقلام

نوال مصطفى

الغلاف
والإشراف الفنى:
الـفنـان : محمـود الهندى

الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد

المشرف العام :
د. سـمير سرحــــان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقـافـة

وزارة الإعـلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشــباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

علي سـبيل التقـديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة باصدراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كـان رهيباً فى المكتبـة العربيـة وأن تزيد رقعة القراءة والقراء بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيرى على إصدارتها غير مسبوق على مستوى النشر فى العالم العربى أجمع بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية علـى وجـه الخصـوص ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعى بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التى أصـدرتهـا. وتواصل إصـدارها هذا العـام إلى جـانب الإصـدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرهـا من السلاسل المعـروفة وحتى إبداعـات شباب الأقـاليم وجدت لـها مكاناً هذا العام فى «**مكتـبـة الأســرة**» .. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ **سوزان مبارك**..

د. سمير سرحان

الإهــداء

إلى صاحب الريشة المثقفه
والحس الفنى الراقى ..
إلى زوجى الفنان **عمرو فهمى**
أهدى هذا الكتاب

نــوال مصطـفـى

محاولة للإبحار

فـى حيـاتنا شـخصيات تستوقفنا .. تشعل داخلنا حمـاس الرغـبة فـى الارتـحال إلـى أعماقها .. توقظ قرون الاستشعار داخلنا لتنتبه ، وترصد وتجمع الخيوط ، وتحلل .

أمـام تلك الشخصيات يتوثب فضول المعرفة لدينا لنكتشف القصة . ويتوهج الفكر منقباً فى أعماق التاريخ باحثاً عن الجذور . وتتفجر الرغبة فى ارتياد الدائرة الإنسانية الخاصة لهذه الشخصية التى نجحت فى انتزاع اهتمامنا وإعجابنا .. بل ودهشتنا أيضاً !

وفى حياتنا أقلام انتزعت لنفسها صفة الخلود .. وجعلتنا نقرأ لها حتى بعد رحيل أصحابها وغيابهم عن عالمنا . فقد حفرت هذه الأقلام فـى وجداننا سطوراً ، ومنحتنا فـهمـاً عميـقاً لأنفسنا ، وإدراكاً أكثر للحياة .. فمنحها القراء صفة الخلود .

فى تاريخ الأدب والفكر الإنسانى بصورة عامة العشرات من هؤلاء الذين خلدتهم أعمالهم الفكرية والعلمية والفنية والأدبية . وهذا الكتاب يضم ثمـانيـة كُتّـاب .. رأيت فى سطورهم وأعمالهم – سواء الأدبيـة أو الصحفية ؛ وكذلك فى حياتهم وسيرتهم الذاتية – ما يجعلهم يكتسبون تلك الصفة الفريدة .. صفة الخلود .

وقد يتسـاءل القارئ : لماذا اخترت هؤلاء بالذات من بين عشرات الكُتّاب والأدباء الذين أثروا حياتنا ثقافة وفناً وعلماً .

وإجابتى ببساطة هى : أننى – شخصياً – كإنسانة وصحفية وكاتبة تأثرت بشكل مباشر بهؤلاء .. وترك كل منهم بصمة عميقة فى تكوينى الصحفى والأدبى والإنسانى .

• • فهذا هو مصطفى أمين أستاذى .. وصاحب المدرسة الصحفية العريقة التى خرج من تحت عباءتها آلاف الصحفيين فى جميع أنحاء الوطن العربى .

كان لى شرف العمل معه مباشرة فى العديد من مشروعاته الصحفية الإنسانية التى يتبناها ويشرف عليها بنفسه فى مؤسسة أخبار اليوم . فلقد توليت مسئولية تحرير باب « أسبوع الشفاء » على مدى ثلاث سنوات .. ثم مسئولية عمود يومى نشر على مدى أربعة سنوات بجريدتى « الأخبار » و« أخبار اليوم » تحت عنوان « نفسى » وحققنا من خلاله أمنيات آلاف من أطفال مصر ، والآن أتولى مسئولية قسم « لست وحدك » .

أهم بصمة تركها مصطفى أمين فى تكوينى الصحفى هى الاهتمام بالناس .. كل الناس .. خاصة الضعفاء منهم . البسطاء والفقراء والمظلومين الذين يلهثون وراء حقوقهم المسلوبة .

تعلمت من مصطفى أمين ألا أنفصل عن نبض « رجل الشارع » .. وهو تعبير صحفى نتداوله بلغة الصحافة ، أن أستمع إلى أى مواطن يلجأ إلىّ وألتقط المعاناة فى عيون أصحاب الصوت الخافت .. غير المسموع . ثم أتحرك برادار الصحفى داخلى فى اتجاه رفع ذلك الصوت إلى أقصى حد حتى يسمعه المسئولون .. ويكون قلمى هو سندهم فى تلمس طريق الخلاص .

وهذا هو البعد الخطير فى شخصية مصطفى أمين كصحفى وصاحب قلم اخترق قلوب الناس قبل عقولهم . فليس هناك شئ يفوق تأثير لحظة تعاطف ومشاركة إنسانية حقيقية يشعر فيها القارئ أن سطور كاتبه المفضل تنطق بما يريد أن يقوله . ويحس أن هذا القلم هو رسوله الأمين إلى المسئولين والحكومة وأولى الأمر . وصوته القوى الذى لا يتردد فى الوقوف إلى جانبه حتى يعود إليه حقه الضائع .

وقد وصل مصطفى أمين إلى مكانة لم يصل إليها كاتب آخر فى قلوب الناس ، فكسب ثقتهم المطلقة لدرجة أن تجد قارئاً أو فاعلاً للخير يأتى إلى مكتبه ويضع مليون جنيه بالتمام والكمال تبرعاً لمعهد السرطان أو معهد القلب الذى كتب عنه مصطفى أمين « فكرة » فى نفس اليوم وطلب مشاركة أهل الخير فى استكمال أجهزة أو معدات تنقصه .

إلى هذا الحد وصل قلم هذا الكاتب إلى التأثير فى الناس .. والوصول إلى أعماقهم .

• • وهذا هو الكاتب الصحفى أحمد بهاء الدين .. صاحب العمود الشهير بجريدة « الأهرام » .. الذى اختار له عنوان « يوميات » ، إنه الكاتب صاحب الأسلوب السهل الممتنع الذى يصارع المرض منذ سنوات ولا يزال .

أحمد بهاء الدين الذى ترك فراغاً لم يملؤه كاتب آخر على صفحات

« الأهرام » . فقد كانت سطوره هى الجرعة اليومية المركزة التى جعلتنا قراء « مدمنين » له . وبالفعل أصبحت قراءة العمود اليومى لأحمد بهاء الدين بالنسبة للكثيرين أشبه بالإدمان .. الذى نشعر معه بأن شيئاً ما داخلنا غير مضبوط إذا مر يوم لم نقرأ له . تماماً كما يشعر المدمن عندما يختفى المخدر ويبحث عنه فى كل مكان .. ولا يهدأ إلا إذا أخذ جرعته .

أحمد بهاء الدين الذى آمن أن الكاتب الصحفى الحقيقى .. هو الذى يقرأ أضعاف .. أضعاف مايكتب ، ثم يتناول أعقد الموضوعات ببساطة قلم متمكن يعرف كيف يحلل ويتنبأ ويشرح كل القضايا المحلية أو العالمية بأسلوب يفهمه المثقف رفيع المستوى .. كما يفهمه أنصاف المتعلمين .. وأرباعهم أيضاً !

أحمد بهاء الدين الذى كتب فى السياسة والفن ، فى العلم والتكنولوچيا ، فى الأدب والشعر والفن التشكيلى وعلوم الفضاء . إنه القارئ الكاتب .. الذى قدس قيمة الثقافة فى حياة الكاتب .. فتميز وتألق . وأثرى القارئ فى كل موضوع تعرض له قلمه .

• ويأتى الدكتور يوسف إدريس .. القنبلة المتفجرة دوماً .. فكراً وفناً وموهبة . يوسف إدريس الذى رفع شعار (الكلمة - الفعل) . أو الكتابة بهدف التغيير والتطوير . وقال لى فى إحدى حواراتى معه : إن الكتاب الذى لا يغيرنى ليس كتاباً . وكان يقصد أن وظيفة الكاتب أن يتمرد على الظلم والفساد والقوالب الجاهزة فى ممارسة الحياة والفكر .

لقد كنت أنتظر « مفكرة يوسف إدريس » صباح كل يوم إثنين بلهفة . وأقرأها فتتسلل إلى الشحنة الخاصة التى كانت تختبئ فى سطور هذا الكاتب القنبلة !

نعم .. أعترف أن سطور د. يوسف إدريس تُغيِّرنى بعد قرائتها .. فأصبح أكثر استعداداً للمقاومة .. وأكثر حماساً لكسر الأطر الجامدة التى ترفض التغيير والتطور .. وتعرقل التفكير الإيجابى فى الحياة .

د. يوسف إدريس الذى تفجرت أفكاره ليكتب القصة القصيرة ويبدع فيها .. بل ويتربع على عرشها لسنوات طويلة .. ولا يزال . ويكتب المسرح والرواية والمقال الصحفى الساخن جداً .

إنه القلم .. المشرط .. الذى استبدله الفنان الأديب بالأدوات الطبية ليعالج البشر عن طريق الكتابة .. وليس الطب . وكان قلمه حاداً بقدر مايحمل من صدق .. وحانياً بقدر مايحمل من طاقة حب دافقة .

• • والآن .. نتحدث عن أديب مصر العملاق .. نجيب محفوظ .. صاحب جائزة نوبل العالمية للآداب . وعندما نتحدث عن نجيب محفوظ فإننا نتكلم عن صاحب القلم الذى نفذ إلى أعماق هذا الشعب .. وحفر بأدبه صورة خالدة لمسيرة الشعب منذ أوائل هذا القرن .

وبهذا يكون هو الكاتب الذى أرخ الأدب .. أو أدَّب التاريخ . وكانت روائع أدبه الخالدة هى قلب مصر الحقيقى محفوظاً فى سطور وأوراق !

نجيب محفوظ .. الأديب الذى أخلص للأدب وأعطاه حياته فعلاً لا قولاً .. وبعد أكثر من نصف قرن من العشق للقلم والكلمة .. وإنتاج عشرات الروايات والقصص القصيرة فى هدوء وبدون ضجيج . فجأة دوت القنبلة الكبيرة .. وانطلقت من استكهولم بالسويد الأخبار تعلن أن أديبنا المصرى نجيب محفوظ .. أديباً لنوبل فى ذلك العام .

عاش نجيب محفوظ حياة منظمة للغاية .. احترم كل دقيقة من وقته وسخرها فى حياة يومية صارمة .. لا يتخللها تهاون أو تساهل مع النفس . وأمضى حياته كأنها معسكر عمل دائم .. دون ملل أو كلل .

ولم يغير الأديب القدير شيئاً من طقوسه اليومية التى اعتاد عليها طوال حياته بعد حصوله على الجائزة . واستمر فى عطائه الأدبى حتى الآن . أمد الله لنا فى عمره وعطائه الثرى فكراً وأدباً .

• • ويجيئ شيخ القصة القصيرة .. يحيى حقى .. بإبداعه المتميز فى القصة القصيرة وكذلك فى ترجمة العديد من أمهات الأدب العالمى بلغة أدبية راقية أثرت النص الأدبى وأضافت إلى رونقه الكثير .

فقالوا عنه : إن ثقافته مزيج من باريس .. والقاهرة .. وفى كلماته رائحة عطور السين .. وبخور الغورية .

كما قالوا : انه وهو يقدم لك بعباراته الرشيقة آخر صيحة فى عالم الفكر .. تجده فى نفس الوقت يقدم لك قلعة الكبش والإمام والمغربلين . فهو الكاتب الذى ينطبق عليه عبارة أنه : « إذا ألف ترجم وإذا ترجم ألف » .

سألته مرة : لماذا تكتب ؟

فأرسل نظرة متأملة .. ثم قال :

– هناك نزعة غريبة جداً عند الإنسان .. اسمها نزعة الاعتراف .. تكمن هذه النزعة فى الشعور بالذنب .. وهو الشعور الذى جعل الإنسان يريد أن يعترف .. وهذه النزعة تلازمها نزعة أخرى عند الفنان هى الرغبة فى التعبير عن الذات . والقدرة على هذا التعبير . وأنا أزعم أن لدى الرغبة والقدرة على التعبير .. ولهذا أكتب .

• • وأرى الكاتب الجميل .. كامل الشناوى بإحساسى .. فلم يسعدنى الحظ برؤيته شخصياً أو العمل معه فى أخبار اليوم وآخر ساعة فى الوقت الذى كان لايزال على قيد الحياة .

لكننى أشعر وأنا مع سطور قصائده .. أو نثره البديع أننى أراه بعين قلبى .. ونافذة روحى . فقد كان كامل الشناوى قلباً ضخماً يمشى على قدمين . كانت دماؤه تقطر حباً .. وروحه تهيم عشقاً .. أما كلماته فكانت .. وستظل ينبوعاً رائقاً صافياً لمعانى الحب الجميلة .. ومشاعر الصدق والمعاناة الحقيقية لشاعر له قلب تعس .

نعم كان كامل الشناوى تعساً فى حبه .. وكانت دمامته هى السبب الرئيسى فى شعوره الدائم بالإحباط وخيبة الأمل مع كل من أحبهن .. وخاصة الفنانة المعروفة التى شدَت بأجمل قصائده التى كتبها بحبر هو مزيج من دمائه التى نزفها جرحه الأليم بسببها .. وموهبته المتفجرة

بالحب والفن معاً .

• • ثم يسطع قلم إحسان عبد القدوس عبر الأفق البعيد .. ونستعيد رواياته الجميلة التى كتبت بقلم جرئ .. لا يرتعش .. ولا يجامل ولا يؤمن بنصف الحقيقة .. بل بالحقيقة كاملة .

واستطاع إحسان عبد القدوس أن يشّرح أعماق المرأة . وأن يصل إلى معاناتها وطموحاتها . ويصل إلى تحليل عواطفها ورغباتها وتناقضاتها . فأبدع وأخرج العديد من الأعمال الأدبية .. التى تحولت معظمها إلى أعمال سينمائية وتليفزيونية وإذاعية .

سألته أثناء حوار صحفى معه : معروف عن الأستاذ إحسان عبد القدوس فهمه العميق للمرأة .. والقدرة البالغة على النفاذ إلى أدق أعماقها .. فكيف تشكل داخلك هذا الفهم العميق ؟

فقال : دائماً يقولون إننى فاهم لمشاعر المرأة وقادر على التعبير عنها .. ولكنى فى الحقيقة لا أعتبر نفسى متخصصاً فى شئون المرأة وأحاسيسها . والواقع أننى منذ بدأت تقديراتى الاجتماعية .. وضعت للمرأة صفة ربما تكون جديدة فى المجتمع العربى . فأنا منذ بداية تكوين تفكيرى وأنا أعتبر أن المرأة شخصية موازية ومساوية تماماً لشخصية الرجل .. ولا فرق بين رجل وامرأة .

وأعتقد أن مايفرق بين المرأة والرجل هو التقاليد .. نوع من فرض القوة .. قوة الرجل على المرأة - وبالطبع تتضاءل هذه القوة بين مجتمع

وآخر وتختلف اختلافاً كبيراً - فالمجتمع الأوروبى غير المجتمع الشرقى مثلاً .

وقال : ولهذا ولأننى رجل .. أفهم وأشعر بكل ما يشعر به الرجل أعبر بنفس أحاسيس الرجل عن المرأة . فليس كل أبطال قصصى من النساء .. ولكن بينهم أيضاً رجال .. وكما أعبر عن النساء أعبر أيضاً عن الرجال .

وبالفعل أنا أساوى بينهما إلا فى اختلاف مسئولية كل منهما .. والذى يفرضه اختلاف التكوين الفسيولوچى « الجسمانى » بين الرجل والمرأة . ولكنهما فى مستوى واحد من ناحية تكوين الشخصية والعقل والفكر ومن ناحية التحليل النفسى أيضاً .

• • وأخيراً .. يأتى مسك الختام .. سيرة أستاذى وأبى الروحى جلال الدين الحمامصى .. كنت واحدة من تلاميذه الكثيرين .. الذين بهرتهم قدرته الفائقة على التحدى والصمود فى معارك غير متكافئة فى سبيل تحقيق مبادئه التى تتجه إلى المثالية ، ولا تقبل أية تنازلات .

عشت مع أستاذى جلال الحمامصى كطالبة فى كلية الإعلام قسم صحافة .. وكان هو أستاذاً غير متفرغ لمادة « الصحافة والنشر » بالكلية .. ثم تتلمذت على يديه فى جريدة الأخبار .. وعاصرت معاركه الصحفية الأخيرة .

رأيته يفتح ملفات تتعلق بانحرافات كبار المسئولين ، فتتفتح فى ه طاقة جهنم عقاباً له على جرأته فى محاسبة من تصوروا أنهم فوق

المحاسبة ، واعتقدوا أن الحياة باقية ، وهم مخلدون فيها . قادرون على طمس الحقيقة أو وأدها .

وتأملته فى معاركه فارساً نبيلاً ، لا يشهر سيفه فى وجه الانحراف الصغير ، الذى غالباً مايكون من ضحايا المنحرفين الكبار . فلم يحارب بقلمه إلا هؤلاء الذين كانوا فوق جيادهم ، فى عز جاههم وسلطانهم .

ومضى فى كتاباته ، حتى آخر يوم فى حياته - ٢٠ يناير ١٩٨٨ - يشهر قلمه فى وجه الهاربين بأموال الشعب ، ومنها حملته التى شنها ضد « هدى عبد المنعم » صاحبة شركة هيديكو ، التى هربت بأموال الكادحين التى تبلغ الملايين ، لتنعم بها فى أوروبا . كذلك كانت حملته الشهيرة لكشف انحرافات رئيس مجلس إدارة البنك العربى الإفريقى ، الذى ظل يكتب عنها على مدى أربعين يوماً متصلة . ونجحت حملته نجاحاً كبيراً وانتهت بإبعاد إبراهيم الإبراهيم عن منصبه . ثم كانت حملته لتسديد ديون مصر التى كان يهدف منها إلى إعادة الانتماء إلى مصر .

وأخيراً .. أتمنى أن يجد القارئ العزيز الجديد والمفيد مع هذه السطور التى هى فى الواقع .. محاولة للإبحار فى أعماق هذه الشخصيات .. وتلك الأقلام التى تركت بصماتها الباقية .. فى أعماقنا جميعاً .

نوال مصطفى

نجوم وأقلام

مصطفى أمين
نجيب محفوظ
يوسف إدريس
جلال الدين الحمامصى
أحمد بهاء الدين
كامل الشناوى
إحسان عبد القدوس
يحيى حقى

مصطفى أمين

أنا أشعر وأنا أمسك قلمى أننى أعانق أجمل امرأة فى العالم ، ولهذا عشت قصة حب طويلة ، ولا أتصور أننى أعيش يوماً بغير قلم ، فلقد كان هذا القلم دائما صديقى وحبيبى أعطيته وأعطانى . عشقته وأخلص لى . وعندما أموت أرجو أن يضعوه بجوارى فى قبرى ، فقد أحتاج اليه إذا كتبت تحقيقاً صحفياً عن يوم القيامة .

مصطفى أمين



الفصل الأول

شرطى الوحيد لمصافحة هيكل أن يعترف بأنه افترى على

* نحن فى هذا الحوار أمام رجل اعتنق مهنة الصحافة وعشقها بل أدمنها .

يأتى إلى الجريدة حتى الآن كل يوم ، وحتى أيام العطلات الرسمية والإجازات والأعياد ، فالسبب الوحيد الذى يمنعه من الحضور إلى المؤسسة الصحافية التى بناها حجرا فوق حجر- مؤسسة « أخبار اليوم » - هو المرض ، عندما يأمره الأطباء بالبقاء فى الفراش والتزام الراحة دون ذلك لا يوجد شىء على الإطلاق يمكن أن يمنعه عن محبوبته التى قضى عمره وفياً لها لا يفارقها : الصحافة .

مصطفى أمين هوالأب الروحى ، الأستاذ . لآلاف الصحافيين المصريين الذين وصلوا إلى أعلى المناصب فى المؤسسات الصحافية سواء فى مصر ، أو فى البلاد العربية ، فتاريخ الصحافة الحديثة فى مصر والوطن العربى يدين له ولتوأمه الراحل على أمين بتأسيس أول مدرسة صحافية مصرية صميمة قامت بتخريج أجيال من الصحافيين والصحافيات يحملون بصمتها المميزة والمتميزة.

فتح مصطفى أمين قلبه فى هذا الحوار ليروى - بصراحة - ذكرياته ، ومواقفه عبر هذا العمر الغنى الذى عاشه ، وكانت له بصماته العميقة فى تشكيل الرأى العام وصنع صحافة مصرية مئة فى المئة ، روحاً وقلباً ونبضاً .

* وقلت للكاتب الكبير : منذ ٤٥ سنة ، وتحديداً فى ١١« تشرين الثانى » نوفمبر ١٩٤٤ أصدرت جريدة « أخبار اليوم » التى نفدت بعد ساعة من صدورها ، وكانت أشبه بقنبلة هزت شارع الصحافة فأربكت كل الصحف المنافسة من اليوم الأول ، فإلى ماذا تُرجع هذا النجاح ؟ وهل تعتقد أن هناك صحيفة جديدة يمكن أن تظهر اليوم لتحدث الدوى نفسه الذى أحدثته جريدة " أخبار اليوم " التى ولدت عملاقة ؟

- ابتسم مصطفى أمين وقال بنبرة تحمل التأكيد والثقة : بكل تأكيد يمكن ذلك ، فأنا أؤمن أن النجاح فى أى عمل هو قصة حب ، والحب الحقيقى معناه التصميم والإصرار والتفانى ، وأقول إننا عندما فكرنا فى إصدار « أخبار اليوم » كان فى أذهاننا هدف معين نسعى إلى تحقيقه ورسالة نريد أن نوصلها ، هذه الرسالة أو الهدف تتلخص فى شعار رفعناه من البداية وهو "من حق الشعب أن يعلم " كنا نكتب فى كل شئ ، مثلاً موضوع الخلاف بين الملك والوفد كانت تعتبره الصحف سياسة عليا لا يجوز للجرائد أن تكتب فيها فكتبت

" أخبار اليوم "ويضيف مصطفى أمين قائلاً : الشئ الآخر ، أننا قررنا ونحن نفكر فى إصدار الجريدة رفع مستوى الصحافة ، ورفع مستوى الصحافيين ، لهذا كانت أكبر مرتبات فى تاريخ الصحافة هى التى وضعتها " أخبار اليوم " لمحرريها فى ذلك الوقت، فأحدثت قفزة أضطرت بقية الجرائد المنافسة للسير وراءها .

* هل تذكر لنا كم كان يتقاضى المحرر قبل صدور " أخبار اليوم" وكم تقاضى فى جريدتكم ؟

- على سبيل المثال توفيق الحكيم كان يأخذ على القصة جنيهين، فأعطيناه على القصة ٤٠٠ جنيه ونشرناها على أربع حلقات ، كامل الشناوى كان يتقاضى ١٢ جنيهاً من الأهرام فأعطيناه ١٠٠ جنيه ، أحمد الصاوى محمد كان يحصل على ٦ جنيهات فأعطيناه ١٠٠ جنيه ، رخا كان مرتبه ٨ جنيهات من دار الهلال فتقاضى عندنا ١٠٠ جنيه .

يعنى باختصار عملنا نقلة فى مستوى الصحافيين ، وأصبحت " أخبار اليوم "بعد سنة من إنشائها تقف أمامها ٦٨ سيارة بعد أن كانت تملك فى بدايتها سيارة واحدة مناصفة بينى وبين أخى على أمين .

* وهل تعتقد أن أى مطبوعة عربية جديدة ، تستطيع الآن أن تحقق مثل هذه القفزة الكبيرة أو الدوى الذى أحدثته "أخبار اليوم " ؟

- أعتقد ، ممكن إذا أصدرها شخص يحب الصحافة ، ويريد أن يعطيها بحب ، فكما قلت من قبل إن النجاح فى أى شئ هو قصة حب .

* ولكن ربما كان وراء تحقيق هذه الانطلاقة الكبيرة للجريدة الوليدة أنكم أنتم أصحاب الجريدة ، فكان من السهل تحقيق ما تفكرون فيه دون سيطرة أحد ، أليس كذلك ؟

- أقول لك ، إنى حققت النجاح نفسه وأنا أعمل كأجير، فأنا كنت رئيس تحرير مجلة " الإثنين"

التى تصدر عن دار الهلال ، وأعتبر أنها كانت المشتل الحقيقى لـ " أخبار اليوم هذه المجلة كلفنى صاحبها أميل زيدان بتولى رئاستها فى عام ١٩٤١، وكان توزيعها ١١ ألف نسخة ، وعرض على مبلغ ٥٠ جنيهاً كمرتب شهرى ، فقلت له : لا ، أريد ٧٠ جنيهاً ولكنه

رفض فقلت له : إذن سأقبل الخمسين على أن أتقاضى ١٠ فى المئة بالإضافة إلى راتبى من الكمية التى ستزيد فى توزيعها . وابتسم أميل زيدان مشفقاً على ، وقال : ولكنها لن تزيد ، وأنا لا أريد أن أخدعك ، فلا تأمل كثيراً فى ذلك ، فقلت له ، : إذن أنا موافق .

ويكمل مصطفى أمين قصة مجله "الإثنين " فيقول وبدأت أبحث لـ " الاثنين " عن قراء جدد وقلت إن هذه المجلة يقرؤها الموظفون فقط فلماذا لا نبحث عن النساء ، لأنه ثبت أن المرأه قارئة أفضل من الرجل ، فالرجل يقرأ " الجرنال " ثم يعيده للبائع أو يعطيه لزميله ولكن المرأة تبقى المجلة أسبوعاً معها فبدأت أهتم بالمواضيع التى تهم المرأة ثم العمال وأيضا توجهت إلى الشباب ، وزادات " الإثنين " فى قفزات متعاقبة إلى ٤٠ ألف نسخة ، ثم ٥٠ ألف نسخة ، ووصلت إلى ٧٠ ألف نسخة ، وطبعاً كان عائد هذه الزيادة مجزيا وكبيرا من الناحية الصحافية ومن الناحية المادية أيضاً ، وكسبت أنا فى الاتفاق الذى ظن أميل زيدان أنه غلبنى فيه !

ويستطرد قائلا : لذلك فعندما أصدرت " أخبار اليوم " استفدت من كل مامررت به فى مجلة " الإثنين " ونفدت من العدد الأول ، ووزعنا ١١٥ ألف نسخة لتكون بذلك أكبر جريدة فى الشرق الأوسط توزيعاً .

* رغم كل ذلك تقول إنه يمكن أن تصدر جريدة مثل " أخبار اليوم " فى الوقت الحالى ؟

- ممكن جدا وأفضل أيضا .

* وفى ظل الظروف الحالية ؟

- أصدرنا " أخبار اليوم " فى وقت سادت فيه الأحكام العرفية وفى وقت حرب ، يعنى فى أسوأ الظروف ، ولم نجد غرفه نسكن فيها فاضطررنا إلى أن نسكن فوق السطوح .

* اذا انتقلنا إلى تقييمك للصحافة العربيه ، وذكرياتك الخاصة مع أصدقائك من الصحافيين العرب الذين ربطتك بهم صداقة مثل كامل مروة مؤسس جريدة " الحياة " ورئيس تحريرها وكذلك سعيد فريحة وآخرين ، فماذا نجد فى صندوق ذكرياتك ؟

- وتابع مصطفى أمين حديثه قائلاً ، كانت لى علاقات طيبة دائما مع الصحفيين العرب ، ولى

أصدقاء كثيرون منهم سعيد فريحة ، وكامل مروة وغسان تويني وغيرهم وأذكر أننى كنت معجباً جداً بكامل مروة فهو صحافى ممتاز استطاع أن يصدر جريدة فيها الصحافة ، والصحافة فيها أكثر من المقالات .

وكامل مروة كتب ضد الناصرية وحاولت الحكومه المصرية أن تستميله بمختلف الطرق ، فقد كانت الحكومة المصرية توزع الملايين على الصحافة العربية حتى لاتهاجمها ، وعلى الرغم من ذلك لم يستطيعوا شراءه ، واستمر فى انتقاداته للديكتاتوريه .

ويستطرد مصطفى أمين ، قائلاً : كان شجاعاً وجريئاً جداً ، وكان له دور فى الحرب العالمية الثانية لما كان مع المفتى فى ألمانيا يحارب الإنكليز ، وهو فى النهاية كفاءه صحافية نادرة ، وإنسان شجاع وجرىء من نوع فريد .

ويضيف قائلاً : ولا أنسى له أنه الصحافى الوحيد الذى لم يذعن لطلب مسؤول مصرى فى بيروت عندما وضعت فى السجن ، فقد دافع عنى فى مقال كتبه فى الصفحة الأولى ، واستمر ينشر مقالات أخرى عنى يستنكر فيها ما حدث .

وقد عرفت سعيد فريحة أثناء الثورة فى لبنان ضد الفرنسيين سنة ١٩٤٣ وأصدر مجلة بعد الثورة أسماها " الصياد " وكانت مجلة ساخرة ناجحة وكانت محبوبةً جداً ، أحبها الذين مدحتهم .. وأحبها الذين هاجمتهم ! وكان سعيد كاتباً ساخراً ، خفيف الظل ، وكان ينشر فى مجلته مغامراته، وهى المغامرات التى يقرؤها القراء باهتمام شديد ، ولأنه كان يكتب عن نفسه وكأنه دونجوان جبار.

* ألم يكن ما يكتبه صحيحاً ؟

– ويبتسم مصطفى أمين ويقول : هو كان دونجوان ولكن ليس جباراً.

* وماذا عن غسان توينى ؟

– غسان توينى كنت أعرف أباه جبران توينى ، فهو الذى أنشأ جريدة « النهار » وأصبح وزيراً للمعارف فى وقت من الأوقات . وغسان مولود فى مصر ، فى الإسكندرية . وكان أستاذاً فى الجامعة الأمريكية ، وبعدها اشتغل فى الصحافة وحول جريدة « النهار » إلى

جريدة حديثة نجحت نجاحا كبيراً جداً .

ولعب غسان أدواراً سياسية مهمة فى لبنان ، ووصل إلى منصب مستشار رئيس الجمهورية ، وتزوج من شاعرة كبيرة ، ثم ماتت ، فأصيب بصدمة كبيرة ، وبعدها توفى أحد ولديه فى حادث ، فلم يحتمل الصدمتين وتحدد نشاطه جدا وأصبح الآن صحافيا بعض الوقت بعد أن كان من أهم الصحافيين العرب وأكفأهم .

* إذا سألنا الأستاذ مصطفى أمين عن تقييمه للصحافة العربية الآن والمستوى الذى وصلت إليه ، فماذا يقول ؟

-الصحافة العربية تقدمت عن الصحافة المصرية طباعيا واستخدمت أحدث ماكينات الطباعة وأفضلها لكنها تراجعت من زاوية الحرية ، والصحافة لايمكن أن تتطور وتزدهر إلا فى وجود الحرية .

ولهذا نجد أن بعض الصحافيين اللبنانيين خرجوا يصدرون جرائد ومجلات خارج لبنان ، حتى يستطيعوا أن يعبروا عن آرائهم. وهذا من حقهم ، وأنا مع الصحافى الذى يخرج من بلاده - إذا حرم من الكتابة داخلها - ليكتب ويتكلم خارجها .

ويضيف مصطفى أمين قائلاً : وهذا ما فعله جمال الدين الأفغانى عندما طرد من مصر ، والشيخ محمد عبده كذلك وأصدرا جريدة « العروة الوثقى » فى باريس ، وهذا ما كنا نعتبره عملاً وطنياً يقوم به صحافيون مؤمنون بمبادئهم .

* وأنضج التجارب الصحفية العربية الآن من وجهة نظرك ؟

- كل الصحف العربية متطورة طباعياً ، ولكن متأخرة صحافياً ، وهذا كما قلت سببه تراجع الحرية ، وأكثر البلاد العربية تحقيقا لحرية الصحافة ، هى مصر .

* البعض يقول ، أنك تقوم بدور استشارى لبعض الصحف العربية ، فهل هذا صحيح ؟

- هذا غير صحيح ، ولكن ما يحدث أن معظم تلاميذى هم رؤساء تحرير هذه الصحف المنتشرة فى كل البلاد العربية وهم يستشيروننى ويهتمون بمعرفة رأيى فى جرائدهم ،

وهذا يسعدنى بالطبع . وكذلك عندما شرع سعيد فريحة مثلا فى إصـــــــدار « الأنوار » شاركت معه فى تأسيسها ، وهذا ما يحدث فى كثير من الجرائد والمجلات التى تصدر ، يعرض علىّ الصحافيون مشاريع جرائدهم الجديدة ، وأساهم معهم بالنصيحة وبالأفكار ولكنها استشارات مجانية ، فأنا لست موظفا فى أى مؤسسة صحافية عربية .

* وما هى السلبية التى أخذتها الصحف العربية عن الصحف المصرية ؟

- أكبر جريمة صدّرناها إلى البلاد العربية هى التأميم ، هناك بلدان كثيرة كان عندها حرية صحافة ، تُعطل بها الجرائد ولكن تفتح جرائد أخرى . وكانت الجرائد تستطيع أن تسقط الطغاة ، ولكن الطغاة الآن هم الذين يستطيعون إسقاط الجرائد .

يعنى صدرنا التأميم إليهم فأصبحت الصحف العربية إما مؤممة أو شبه مؤممة أو مهددة ، زمان كان الرد على مقالة بمقالة أخرى ، أما الآن فأصبح الرد على مقالة يتم بطلقات الرصاص !

* إذن كيف تتصور ملكية الصحف ؟ وما هى أفضل صورة تجدها مناسبة للصحافة العربية ، بعيدا عن سيطرة الحكومات أو سيطرة رأس المال ؟

- النظرة التى تتهم رأس المال بالتدخل والتأثير فى سياسة التحرير هى نظرة غير سليمة . ففى الجرائد التى يملكها أفراد فى إنكلترا مثلا ، تجد المحررين يهاجمون مصالح أصحاب رأس المال وينشر ما يكتبون فى جريدتهم . وفى "أخبار اليوم "عندما كنا أصحابها ، قبل التأميم عام ١٩٦١ - كان المحررون يكتبون أحيانا ضد آرائنا ، فأنا مثلا كتبت أؤيد معاهدة صدقى - بيفن ، وفى الجريدة نفسها كتب كامل الشناوى يهاجم معاهدة صدقى - بيفن ومع ذلك لم تمنع المقال .

فالحكاية ليست تدخل رأس المال ، فرأس المال ، مهما كان كبيرا فإن تأثيره ضعيف . ولكن المصيبة الحقيقية هى تدخل الحكومات وولايتها على الصحافة والصحافيين . والكثير من الصحافيين يظنون أن سيطرة رأس المال تحد من حرية الصحافة ، لكن الواقع يقول إن الصحافيين لم يعرفوا الحرية إلا فى عهد أصحاب الصحف ، ولم يعرفوا العبودية إلا عندما ملك الحاكم كل الصحف .

* نعرج قليلا لنتكلم عن جرائد المعارضة ،فهناك من يقول أن جريدة « الوفد » تحرر من منزلك ، أو مكتبك فى "أخبار اليوم " فهل هذا صحيح ؟

- بالطبع غير صحيح ، ولكن القصة أن رئيس تحرير « الوفد » كان المرحوم مصطفى شردى هو أحد تلاميذى الممتازين فى «أخبار اليوم » وكان مدير تحريرها جمال بدوى - أصبح الآن رئيس التحرير بعد وفاة مصطفى شردى - وجمال أيضا من أبناء « أخبار اليوم » النابغين ، وكذلك عباس الطرابيلى الذى أصبح مديرا لتحرير جريدة « الوفد » من أبناء أخبار اليوم وسعيد عبد الخالق وكذلك سكرتير التحرير ، فطبيعى أن يكونوا متأثرين بمدرسة «أخبار اليوم » دون أى توجيه منى ، كأى طالب تخرج فى كلية الطب مثلا هل يعود إلى أستاذه ليسأله كيف يعالج المرضى فى كل وقت ، أم أنه يعود إليه ليستشيره إذا تعذر عليه معرفة أفضل الحلول أو أحب أن يتأكد من شىء .

هذا ما يفعله كل تلاميذى معى ، ليس فقط تلاميذى فى "الوفد " بل كان يفعل ذلك مثلا محسن محمد عندما كان يرأس تحرير جريدة « الجمهورية » وعلى رغم عدم اتفاقى مع سياسة « الجمهورية » كنت أقول له رأيى من الناحية الصحافية ، لأن ما يهمنى هو أن تنجح كل جريدة سواء كنت متفقا مع سياستها أو معارضا لها ، وكذلك يسعدنى أن ينجح تلاميذى فى كل مكان .

السادات سجننى ٤ سنوات وأفرج عنى بعد أكتوبر

كان الملك فاروق مهتماً بنجوم هوليوود ويكره الإنكليز جداً

قال لى عبد الناصر فى أول لقاء : لقد ضاعت كل نقودى فى شراء مجلاتك وجرائدك

في حياتي أسماء لا أنساها ، مشهورون ومغمورون ، رجال ونساء ، ونجوم عاشوا في المجد ونجوم كالشهب سقطت في زوايا النسيان . وحياتي هي الناس . وأحسب أن الفرق بين الجنه والجحيم أن الجنة فيها ناس ، والنار خالية من الناس . وإذا كان الكتاب يصفون جمال الطبيعة بما فيها من أشجار وجبال وأنهار فأنا رأيت جمال الطبيعة في البشر ، وأحسست دائما بأن الجمال هو رضاء الله على مخلوقاته !

بهذه السطور بدأ كاتبنا الكبير مصطفى أمين مقدمة كتابه "أسماء لا تموت" الذي حكى فيه ذكرياته عن أسماء عرفها وعاش آمالها وآلامها ، وشهد معهم قمة مجدهم ، وأفول نجمهم .

وحفزتني هذه السطور لأن أطرح على كاتبنا الكبير أسماء أشخاص ساهموا في صناعة تاريخ مصر ، عرفهم عن قرب ، وكانت له صلة مباشرة بكل منهم ، فسألته ما الذي ربطك بهؤلاء : سعد زغلول ، الملك فاروق ، جمال عبد الناصر ، أنور السادات ، وحسني مبارك ؟

– فقال : أنا ولدت في بيت سعد زغلول ، أما الملك فاروق ، فقد تعرفت عليه للمرة الأولى سنة ١٩٣٦ وكنت وقتها أدرس في أمريكا ، وعرض على أحمد حسنين هيكل ، رئيس جمعية النواب ، أن أكون ضمن الشباب المصري الذي سيقابل الملك فاروق ، لأن الملك يريد أن يعرف رؤية شبابنا لحضارة بلاد العالم وتطورها . وبالفعل تحدد موعد لقائي بالملك فاروق وفوجئت أنه شاب ، ولاحظت أنه يكره الإنكليز جداً ، وعرفت بعد ذلك أن سبب كراهيته لهم مربية إنكليزية كانت تضربه وهو صغير بالكرباج بناء على أوامر الملك فؤاد ! ولاحظت أيضا أنه مهتم بحفظ أسماء نجوم هوليوود ومعرفة وتتبع أخبارهم .

* وهل أيدت الملك فاروق في كتاباتك ؟

نعم في البداية أيدته ، لأن كل الناس كانت تؤيده وتحبه ، وبعد ذلك حدث الصدام وهاجمته كثيراً في مقالاتي .

* وماذا عن علاقتك بعبد الناصر ؟

– كان أول لقاء بيني وبينه في منزل أم كلثوم في حفلة أقامتها في بيتها لأبطال الفالوجا الذين حوصروا ، وكان هو أحد هؤلاء ، وذلك قبل قيام الثورة .

قدمنى إبراهيم بغدادى الذى كان معنا فى هذا الحفل إليه وقال: أقدم لك الصاغ جمال عبد الناصر ، ثم صافحته وقلت : أنا مصطفى أمين .

فقال عبد الناصر ضاحكا : وكيف لا أعرفك وكل نقودى ضاعت على صحفك . لقد كنا نرسل أحد جنود الفالوجا ليخترق الحصار ويشترى لنا " أخبار اليوم ".

وتحدثنا يومها عن الديموقراطية المفقودة وضرورة تغيير الأوضاع وبخاصة بعد مأساة حرب فلسطين ، وأن الأمر يقتضى تغيير الصورة السياسية فى مصر .

* وما هو انطباعك الأول عن جمال عبد الناصر ؟

- كان حاداً جداً لا يداعب ولا يتقبل أن يتبسط أحد معه ، وكان يجلس منفردا طوال الليلة ولا يشارك الآخرين مرحهم ، بل يناقش القضايا الجادة فقط ، وكان واضحا أنه متميز عن الآخرين .

* والسادات ؟

- أول معرفتى بالسادات عندما اتهم بقتل أمين عثمان ، وكنت أنا ضمن المدافعين عنه ، وأقمنا حمله صحافية كبيرة هزت الرأى العام ، وبعدها كنت أتمنى أن يعمل معنا فى " أخبار اليوم " فوجدته قد عمل بـ " المصور ".

* وعندما أصبح رئيسا للجمهورية ؟

- عندما أصبح رئيسا للجمهورية أبقانى فى السجن أربع سنوات ثم قابلته أم كلثوم وقالت له: مصطفى أمين برئ . فقال لها : بعد المعركه سأخرجه . وفعلا بعد المعركة خرجت من السجن فى عام ١٩٧٤ .

* والرئيس مبارك ؟

- لم أكن أعرفه إلى أن تعين نائباً لرئيس الجمهورية . والسادات قال لى قابله ، فقابلته ولاحظت أنه يكتب ملحوظات عن كل مايدور فى اللقاء وشعرت أنه يريد أن يعرف كل شئ وليس مغروراً أبدا. ولما أصبح رئيسا للجمهورية ، قابلته ، وطرح فى اللقاء أفكاراً كثيرة ،

وبعدما خرجت من اللقاء جاءني صحافيون يسألوني عن رأيي ، فقلت لهم : " مصر رجعت للمصريين " .

* وما الذي جعلك تقول هذا ؟

- لأن أفكاره فيها موافقة على الديموقرطية ، وموافقة على حرية الصحافة ، وموافقة على إطلاق سراح المسجونين السياسيين .

* من الشخصيات التي تحدثت عنها كثيراً ، وكان لها دور بارز في حياتك ، شخصية أمك وكذلك شخصية صفية زغلول ، زوجة الزعيم سعد زغلول ، التي نشأت في بيتها . فهل تحدثنا عنها ؟

- أنا أعتقد أنني مدين بكثير من أسباب نجاحي للمرأة فأنا أعتبر نفسي مديناً لأمي بالشئ الكثير . أمي كانت مؤمنة إيمانا غريبا بثورة ١٩١٩ ، وبلغ اهتمامها بهذه الثورة أن اشتركت في تهريب منشورات ، ففي إحدى المرات كانت المواصلات مقطوعة بين القاهرة والمحافظات لأن رجال الثورة قطعوا السكك الحديدية بين المحافظات والعاصمة ، ولذلك ذهبت إلى بور سعيد بالمركب وكانت تحتفظ بالمنشورات تحت ملابسها وكأنها حامل ، وسافرت فعلاً ، وقامت بتسليم هذه المنشورات لقاضي محكمة بور سعيد في ذلك الوقت ، واسمه أحمد الصاوي ، وكان أحد أعضاء الجهاز السري في الثورة .

ويتوقف الكاتب الكبير ، كأنه يقرأ في كتاب الماضي ، ثم يستكمل ذكرياته قائلاً :

- موقف آخر لا أنساه لأمي ، أنها في عام ١٩٣١ وقعت قراراً بتأييد موقف سعد زغلول بمقاطعة البضائع الإنكليزية ، وظلت إلى أن ماتت بعد هذا التاريخ بخمس وأربعين سنة تطبق هذا القرار بينها وبين نفسها .

فمثلاً رفضت أن تسافر إلى إنكلترا لزيارة أخي على أمين عندما سافر ليكمل دراسته في إنكلترا ، ولم تذهب إليه طول فترة إقامته هناك .

أيضا عندما كانت تسافر إلى أمريكا كانت ترفض السفر عن طريق لندن ، وكانت تصر على السفر عن طريق إيطاليا أو فرنسا أو ألمانيا ، فلم تدخل إنكلترا مطلقا ، ولا حتى

ترانزيت . ليس هذا فقط بل أنها مانعت كثيراً فى سفر على إلى هناك ، ولم توافق إلا بعد أن استعان أبى بشيخ الأزهر - وكان فى ذلك الوقت الشيخ محمد مصطفى المراغى - الذى أفتى بأن سفر على لا يخل بالقرار الخاص بمقاطعة كل ما هو إنكليزى ، ولكنها اشترطت ألا يُحضر على أى هدية أو ملابس من هناك !!

* وماذا عن أم المصريين " صفيه زغلول " ؟

- كان لهذه السيدة تأثير مباشر علىّ فقد قضيت سنوات طفولتى الأولى فى بيتها ، وكانت أمى ابنة أخت سعد زغلول ، وتقيم فى منزله ، وظللنا هناك أنا وعلى وأمى حتى بلغنا سن ١٣ سنه .

* وما أهم الصفات التى بهرتك فى شخصيتها ؟

- أنها شخصية قوية جداً ، وقد رأيت فيها نوع المرأة الذى أحبه ، فهى مطيعة جداً لزوجها . ولكن إذا نفى هذا الزوج تحولت هى إلى رجل ، قادت الزعامة وكأنه موجود ، فتصمد ، وتحارب وتخاطب الناس .

كل هذا يحدث إذا تعرض الزوج لمحنه ، أما مع زوجها - فى وجوده - فهى أمرأة عادية جدا لدرجة أنها كانت تطلب من السفرجى عند تقديم الأكل أن يقدم لسعد زغلول أولاً !! وكانت فى كل صور الفرح تقف بينما يجلس سعد زغلول على الكرسى !

* وهل كانت صفية زغلول من عائلة رجعية ؟

- أبدا.. كذلك - وهذاهو الغريب فى الأمر - كانت مربيتها لبنانية ، ووالدها كان رئيسا للوزراء لمدة ١٤سنة ، وكان قبل ذلك وزيراً لمدة ١٦ سنة ، ومع ذلك فعندما تزوجت فلاحا يقصد سعد زغلول) أصبحت فلاحة مثله !!

ويستطرد قائلا" : وصفية زغلول كان فهمها للحرية غير مفهوم الجيل الحالى لها ، فعلى سبيل المثال أذكر أنها فى عام ١٩٣٥ أرسلت خطابا لأمى مغلفا بالسواد من كل جوانبه ، ثم فتحنا الخطاب ، فإذا بكل الصفحات داخل برواز أسود ، اعتقدنا كلنا أن أحد أفراد العائلة قد توفى وفى النهاية اكتشفنا أن واحدة فى العائلة طلقت .

أيضاً كانت صفية زغلول وأمي تصفان " البنت المتربية "بأنها البنت التي لا تضع " رجلا على رجل "ولا تشرب سيجارة ، وهذه كانت صفات البنت المهذبة .

ويضحك مصطفى أمين ، ويقول : أذكر أنني لم أقل لأمي : أنت .، لم أقل لها إلا :" حضرتك "، ولا أتذكر أنني جلست وهي واقفة ، حدث هذا حتى ماتت ، وكنت وقتها صاحب " أخبار اليوم".

في زنزانة ليمان طرة لم أصدم إلا في واحد من كل ألف من تلاميذي

العمل الإنساني جزء لا يتجزأ من علاقتي بالناس والعمق الحقيقي لإحساس نبض رجل الشارع

نعم .. أنفذ وصية توأمي علي أمين الدنيا بخير ليس شعاراً جميلاً بل هو واقع عشته ولا أزال .

---

* ماسر هذه المظاهرة التى تقام أمام باب " أخبار اليوم " مرتين يوميا ، مرة فى الصباح ، ومرة بعد الظهر ؟ المارة فى شارع الصحافة يستوقفهم المشهد المثير ، طابور طويل يمتلئ بالنساء والشباب والأطفال والشيوخ ، جاءوا ينتظرون وصول الكاتب الكبير ، كل منهم يحمل خطابا أودع به عذاباته وأغلقه ، ثم وقف ينتظر ليسلم المظروف يداً بيد إلى صاحب اللمسة الإنسانية المميزة فى الصحافة المصرية والعربية .

ورغم أن صحته لم تعد تصمد أمام المجهود العنيف ، فإنه يحرص على لقاء هؤلاء الفقراء وغير القادرين والمعذبين ، وقد حدد موعداً بعد ظهر كل يوم ثلاثاء للاجتماع بمحررى ومحررات قسم " لست وحدك " أحد الأقسام الإنسانية التى يتولاها ويتبناها بنفسه ليستمع إلى تقارير المحررين التى أعدوها من مختلف محافظات الجمهورية بعد دراسة مشكلات ومآسى أصحابها على الطبيعة ، وبعد مناقشة كل حالة مع أفراد القسم يقرر نوع المساعدة التى يستطيع القسم أن يقدمها لصاحب المشكلة .

هذا، فى اعتقادى ، البعد الخطير فى شخصية الكاتب الكبير وهو البعد الإنسانى الذى يجعله قريبا دائما من نبض الناس ، وهذا ما يجعل لما يكتب فى عموده اليومى " فكرة " تأثير السحر عند الناس ، فيتحول اليأس الراقد فوق قلوبهم إلى طاقة أمل ، والإحباط المسيطر عليهم إلى رغبة فى التحدى والانتصار على الظروف والعقبات .

* قلت للأستاذ مصطفى أمين : فى عمودك " فكرة " يكاد يستشعر القارئ مدى الصدمات المتلاحقة التى تركت بصماتها عليك، وبخاصة تلك التى جاءت من مواقف قاسية من تلاميذك الذين أخذت بأياديهم ودفعتهم إلى أبواب الشهرة والنجاح ولكن الجزا ء لم يكن من جنس العمل ، فما تعليقك ؟

وبانفعال حقيقى ، ارتفع صوت مصطفى أمين لينفى هذا ويؤكد عكسه ، وقال :

- أنا لم أصدم إلا فى واحد من كل ألف من تلاميذ ى يعنى كان هناك ٩٩٩ واحد ممتازين جدا وقفوا إلى جانبى مواقف مذهلة فى وقت كانت الناس تخاف الاقتراب منى ، وعندما كنت فى السجن كان محررو " أخبار اليوم " يعاملوننى كما لو كنت لا أزال رئيسا لتحرير " أخبار اليو م " ينقلون الأخبار لى ويقولون ماالذى لم ينشر منها ، ويكفى أن أقول أنى فى السجن وصلنى التحقيق السرى الذى يجرى مع صلاح نصر حرفياً !!

* معقول ؟ !

– نعم والله ، تم تهريبه لي داخل السجن ، وهذا هو أكبر دليل على أن التلامذه كانوا أقوياء جدا ، وعدد الذين خافوا كان قليلا جدا مع وجود إجراءات مشددة لا يتصورها أحد . فوجئت بالخير في الناس أكثر عندما دخلت السجن ورأيت أناساً لا علاقة لهم بالسياسه مساجين في قضايا أخرى لكنهم وقفوا معي وكونت معهم العصابة التي تهرب الرسائل التي أكتبها إلى خارج السجن وكانت هذه تضحيه كبيره منهم .

ويتذكر مصطفى أمين موقفاً من المواقف التي لا ينساها ، فيقول :

– لما دخلت السجن ، وصل أمر من وزير الداخلية يقول أن المسجون مصطفى أمين لا يصرح له بالكتابة (كتابة الخطابات) إلا مرتين في الشهر على ألا يزيد ما يكتبه عن نصف صفـــحة " فولسكاب " وألا يكون هناك قلم أو ورقة في زنزانته وتتم كتابة الخطابات في غرفة الضابط وفي حضوره . ولما أطلعوني على هذا القرار شعرت بأنني وضعت في سجن آخر ، سجن حقيقي ، فالكتابة بالنسبة للكاتب كالهواء الذي يتنفسه ، ومعنى قرار وزير الداخلية أن أتنفس مرتين في الشهر فقط ! وعندما قرأ ت هذا القرار فكرت في مجموعة من السجناء الذين اعتقدت أنهم مظلومون لأكون منهم عصابة تساعدني في تهريب الرسائل والتحايل على أمر وزير الداخلية واخترتهم من المظلومين لأني أعتقد أن المظلوم يكون دائما أقوى من الظالم .

واخترت نزلاء الدور الرابع " ليمان طرة " حيث كنت أقيم في الدور نفسه وكان لا بد أن أخفي القلم والورقة في مكان أمين فاخترت السجين النزيل بالزنزانة رقم ١٤ واسمه محمد كامل (لا يقرأ ولا يكتب) ووافق محمد على هذه التضحية الكبيرة وخبأنا القلم والورقة في زنزانته وكنت عندما أكتب تمر الورقة والقلم من الزنزانة ١٤ إلى ١٣ إلى ١٢ إلى ... حتى تصل إلى في زنزانة رقم ١ فأكتب ثم تسير الورقة نفس الدورة حتى تصل إلى الزنزانة رقم ١٤ وكانت كلمة السر بيننا في حالة مرور أي ضابط للتفتيش هي :" أحمد عبد الرحمن " ده كان مديراً للشئون الجنائية وكان المسجونون يخافون منه ..

* معنى ذلك أنك لم تفقد الثقة بالناس ؟

- أبداً بالعكس .

* هل تذكر لنا أهم تلاميذك الذين كانت لهم مواقف لا تنساها ، تذكرك أن الدنيا بخير ؟

- والله أظلمهم لو ذكرت بعضهم ونسيت البعض الآخر .

* وهل ندمت في يوم من الأيام أنك أعطيت فرصة لأحد تلاميذك ثم فوجئت به يعض اليد التي امتدت إليه بالمساعدة ؟

- أبدا لأني أجد لذة في دفع المواهب الصحافية وأستمتع بذلك .

* ولذلك تخصص جزء كبيراً من وقتك للعمل الإنساني ومشاريعك الإنسانية الفريدة على مستوى صحف العالم ؟!

- العمل الإنساني هو جزءاً لا يتجزأ من علاقتي بالناس ، والعمق الحقيقي لإحساسي بنبض رجل الشارع في مصر والبلاد العربية وأجد فيه ذاتي ، ولهذا نجد فروعا جديدة تنمو من الشجرة الأم (مشروع ليلة القدر) مثل أسبوع الشفاء ولست وحدك « ويوم اليتيم » « ونفسي » « ومساعدة الطلبة » وغيرها .

* ألا تجد أن حجم هذه المشاريع يحتاج إلى مؤسسة كبيرة مستقلة ، وبخاصة وأن تبرعاتها وصلت إلى الملايين ؟

- في الحقيقة يرهقني مباشرة أعمال كل هذه المشاريع ويأخذ كثيرا من وقتي ولكني أشعر أنها أمانة وثقة من الناس أودعوني إياها . في ذات الوقت فالأمانة يجب أن تصل من المتبرع إلى المحتاج فعلا وليس المدعي . والثقة يجب أن تتدعم لدى المتبرعين في أن أموالهم تذهب بالفعل إلى من يحتاجها ، ولهذا فأنا أختار بعناية المحررين والمحررات الذين يعملون معي في هذه الأقسام وهم كلهم متطوعون لا يتقاضون أجراً نظير هذا العمل الإنساني . وأفضل ألا أقيم مؤسسة كبيرة أعين لها مديرا ، والمدير يحتاج إلى سكرتيرة وسيارة ومبنى مكيف فهذا يفتح بابا للإنفاق في أوجه كثيرة تقتطع من هذه الأموال التي يجب أن توجه إلى من يستحقها من المحتاجين والفقراء .

* وهل تعتبر أن هناك سببا آخر لاهتمامك بالمشاريع الإنسانية ؟ أي دافع شخصي ؟

- نعم فهناك إحساس داخلى دائم لدى بأننى بتبنى هذه المشاريع ومباشرتها أنفذ وصية أخى وتوأمى على أمين صاحب فكرة معظم هذه المشاريع .

ومد الكاتب الكبير يده ليلتقط ملفاً أمامه يحتفظ فيه ببعض الأوراق الهامة وأخرج منه صورة مقالة " فكرة " التى كتبها فى الذكرى الأولى لوفاة توأمه على أمين ، وأعطانى إياها فقرأت هذه السطور :

« لا أصدق أنه مات منذ سنة.. وحشته كبيرة كأنه غاب منذ ألف سنة وألم فقده لا يزال ينزف دماء كأننى فقدته منذ لحظات .

لا أريد أن يحزن الناس فى يوم ذكراه، فقد أوصانى أن نحتفل بذكراه بالبسمات والضحكات لا بالدموع والآهات .

أوصانى ألا نضع زهوراً على قبره بل نحاول أن نغرس شجرة من الأمل فى صحراء اليائسين ، أوصانى ألا نقيم سرادقا للمعزين بل نقوم بحملة لبناء غرفة لكل من لا يجد مأوى أوينام فى المقابر أو على قارعة الطريق .

فهو يريد منا حين نذكره أن نبتسم ، ننسى مأتم وفاته ونتذكر عيد الأم الذى أدخله فى بلادنا، فهو يحس بمتاعب الناس وهمومها وأحزانها فى هذه الأيام ولا يريد أن يكون أحد همومها أو أحد أحزانها يريد أن تكون أراؤه وأفكاره عاملا يخفف عن الناس متاعبهم ويحمل عنهم بعض مشاكلهم .

إنه يفضل أن ننفق ثمن الوَردَ الذى نضعه على قبره لشراء طعام لجائع أو لشراء كتاب لطالب جامعة لا يجد ثمن الكتاب وموعد الامتحان يقترب ، أو لشراء ثوب لعار امتلأت جلابيته بالثقوب دموعنا لا تعيده إلى قيد الحياة وإنما الذى يعيده إلى الحياة هو أعمالنا من أجل الذين يحبهم ويهتم بهم ويحس بأنهم جزء لا يتجزأ من قلبه ! من يريد أن يبكيه اليوم فليمد يده ليساعد ساقطاً على الأرض ليقف على قدميه ، أو يقف بجوار مظلوم لا يجد من يدافع عنه أو يضئ شمعه فى ظلام بائس يبحث دون جدوى عن قبس من نور . أو يهدى إلى الإيمان تعيساً ضالاً أغمض عينيه فلم ير نور الله ! وأنا لا أوافق أن نحتفل بيوم الوفاة إننى أفضل أن تتغير هذه العادة ونحتفل بعيد الميلاد . ولا أعرف بلداً فى الخارج يحتفلون بذكرى وفاة مفكر أو

شاعر أو زعيم الا فى مصر . وهنا تذرف الدموع فى ذكرى الوفاة ! ومن أجل هذا سوف أحاول أن أبتسم وأضحك وأحلم فى ذكرى وفاة على أمين فلنا لم أشعر حتى الآن أنه مات !!.

وتقع فى يدى صورة الوصية التى كتبها الراحل على أمين يوصى فيها بأن يرث محرروا وعمال" أخبار اليوم " الدار ، وإقرار من مصطفى أمين بالموافقة على ذلك . ثم خطاب من على أمين لزوجته يبرر لها لماذا أقدم على هذه الخطوة ويدعوها لأن تسامحه وقت فهم موقفه .

وهذا هو نص الوصية التى كتبها على أمين يوم السبت ٢٦ تموز (يوليو) ١٩٥٢ بخط يده :

أوصى أنا على أمين يوسف الشهير باسم على أمين بكل ما أملك من الصحف والمجلات وعقارات وماكينات إلى جميع محررى وموظفى وعمال وخدم دار "أخبار اليوم "على أن يكون نصيبهم فى هذه التركة بنسبة الأجر الذى يتقاضاه كل منهم أول شهر حزيران (يونيو) ١٩٥٢ ، ولقد أخذت هذا القرار بمحض إرادتى ، وأنا متمتع بجميع قواى العقلية ، ولا يحق لأى وارث من الورثة الشرعيين الطعن فى هذه الوصية فإن دار " أخبار اليوم "لم تنشأ بمالى وإنما بمجهود هؤلاء المحررين والموظفين والعمال والخدم وتكاتفهم وإخلاصهم المتواصل وأرى أن أعيد إليهم حقهم فهم أصحاب الحق ولا يجوز لأصحاب الأنصبة فى هذه التركة أن يتصرفوا فى أنصبتهم بالبيع أو بالرهن إلا بموافقة بقية الورثة ، ولا يجوز أن يشترى هذه الأنصبة فى حالة الموافقة إلا محرر أو موظف أو عامل أو خادم يعمل فى " أخبار اليوم " أو كان يعمل بها " وأوصى أن يتألف مجلس الوصاية لإدارة " أخبار اليوم " من الأساتذة محمد التابعى – كامل الشناوى – جلال الحمامصى – محمد زكى عبد القادر – محمد حسنين هيكل – عبد العليم عبد العزيز . وفى حالة وفاة أحدهم يحل محله الشخص الذى يختاره مجلس الوصايه ليشغل مكانه فى الجريدة والدار ويقررمجلس الوصايه سياسة صحف الدار ، وأنا لا أشترط عليهم سياسة معينة وإنما أطالب أن تستمر هذه الصحف تحارب الفساد فى كل مكان ، وتطالب بالحرية لكل شخص وإن كان من خصوم الدار. .

وأوصى ألا تتعقب صحف الدار الذين وشوا بنا عند القيادة العامة ، واتهمونا اتهامات كاذبة فأنا شخصياً قد عفوت عنهم من قلبى ، وأترك حسابهم لله ، ولا أريد أن تحاسبهم الصحف التى أصدرتها وأوصى أن تتفق الدار مع أحد البنوك على تحصيل الديون المستحقة على الدار وألا تباع الممتلكات لتسوية هذه الديون بل تتولى الإدارة تسوية الديون من

أرباحها.

إمضاء على أمين (السبت) ٢٦ تموز (يوليو) ١٩٥٢

٤ ذو القعدة ١٣٧١ هـ ".

ويقر الأستاذ مصطفى أمين على الوصيه فيكتب هذه السطور :

« أشهد على صحة الوصية وأقر وأوافق على ما جاء فيها مع إضافة أسماء الآنسة أم كلثوم إبراهيم والأساتذة فكرى أباظة وتوفيق الحكيم وأحمد الصاوى محمد .

وأشهد الله على ذلك ، مصطفى أمين ٦ آب (أغسطس) ١٩٥٢ .

ثم أقرأ ما كتبه على أمين لزوجته زينب تبريراً لهذه الوصية التى تنزع حقها الشرعى هى وابنتها فاطمة فى أن ترثه بعد وفاته ":عزيزتى زينب ..

لقد أخبرتك قبل اليوم بأنى سأوصى بكل ما أملك لمحررى وموظفى وعاملى وخدم « أخبار اليوم » .

لأنه من رأيى أنهم أصحاب " أخبار اليوم " الحقيقيون ، ولقد كتبت هذه الوصية فعلاً . فأرجوا ألا تنساقى وراء رأى قد ينصحك بأن تطعنى فى صحة هذه الوصية بحجة أنى كتبتها فى ظل ظروف معينة ، فأنت تعرفين أننى صارحتك ولم أخدعك فى يوم من الأيام وأقول لك أننى سأوصى لك بكل ما أملك ، والله على ماأقول شهيد ، ولا تظنى أننى اتخذت هذا القرار لحرمانك وحرمان فاطمة لعدم ثقتى فيكما أو عدم حبى لابنتى ، فالله يعلم أننى أرجوا لكما كل سعادة وهناء . ولكنى اتخذت هذا القرار إبراءً لذمتى نحو محررى وعمال وخدم " أخبار اليوم " وأنى أرد لهم ما حولوه بعرقهم وجهودهم وبنائهم إلى مبان وماكينات وأن أى يد امتدت إلى " أخباراليوم " سواء كانت يدك أو يد ابنتى هى يد تمتد إلى أموال ليست لها . وأحب أن أقول لابنتى عندما تكبر أننى لم أمت راكعا ولا ساجدا وإنما مت وأنا واقف على قدمىّ مرفوع الرأس وأننى مت بعد أن تحققت آمالى كصحافى ، وآمالى كمصرى ، وأننى عشت نظيف اليد لم أمد يدى لأحد ولم ألوثها بمال حرام ، وأنى استطعت مع أخى مصطفى أن نخلق صحافة مصرية محترمة وأن نرفع مستوى محررى الصحف وعمالها وأن نخلق جيلاً جديداً من

الصحافيين المصريين ، ونجحنا في حملة تطهير حكم الحكام وأنها لو شهدت وهي شابة حكما نظيفا وحكاماً أطهاراً فلتتذكر لأبيها وعمها دوراً مهما في هذا التطور العظيم . وختاماً تقبلي تحياتي وقبلاتي مع دعائي لك بالسعادة والهناء من بعدي فقد حال انشغالي المتواصل وسهري المستمر في عملي أن أقدم لك بعضاً مما تستحقين من السعادة والهناء .

الإمضاء ، علي أمين

" أشهد وأقر وأوقع على كل ما جاء في الوصية "

مصطفى أمين ٦ آب (أغسطس) ١٩٥٢

أم كلثوم ... صديقة العمر
شاركت زوجتى في تهريب الخطابات .

أؤمن بعمل المرأة ... وأحترم الرجل
الذى يشجع زوجته .

* للمرأة فى حياة كل كاتب دور مهم ينعكس بشكل مباشر على نظرته للحياة ، وتناوله لأى قضية من قضايا مجتمعه ، حتى لو كانت قضية سياسية ، ومصطفى أمين من الكتاب الذين يعترفون بكل صراحة بهذا الدور ، ويعطونه قدراً كبيراً من التقدير والاحترام .

فماذا لو اخترقنا الدائرة الخاصة للكاتب الكبير ؟! وماذا سنكتشف فى خبايا هذه العلاقة بالمرأة ؟

* قلت للأستاذ مصطفى أمين ، قالوا إنك أحببت كوكب الشرق أم كلثوم ، وكانت قصة حب قوية . فهل هذا صحيح أم إشاعة ؟

- كانت صداقتى لأم كلثوم طويلة جدا ، بدأت سنة ١٩٣٢ إلى اليوم الذى توفيت فيه ، وكنت معجباً بها كامرأة ، فلاحة استطاعت أن تعلم نفسها ، وأن تصبح سيدة مثقفة ، لغتها العربيه ممتازة قراءة وكتابة ، وأعتبرها من أحسن النساء المصريات اللاتى كتبن ببلاغة وتمكن

ويكمل مصطفى أمين انطباعاته عن " صديقة عمره " كوكب الشرق فيقول :

- أخرجها أهلها من الكتاب بعد شهر واحد لأنهم كانوا فقراء ، ولم يستطيعوا أن يدفعوا لها قرش صاغ - مصاريف الكتاب - وقالوا إن أخاها (خالد) أولى منها بالتعليم .

فكانت تجلس بإنصات شديد تستمع إلى والدها وهو يراجع لأخيها (خالد) الدروس ، فتحفظ كل شئ . تعلمت القراءة والكتابة ، وتفوقت على أخيها ، وكانت أكثر تعليما وثقافة منه ! وعلى الرغم من أنها لم تدخل مدارس ولا كتابا ، ولا تتلمذت على يد مدرسة خاصة ، إلا أنها قرأت كتاب " الأغانى " للأصفهانى كله ، وقصائد كبار الشعراء واختارت الممتازين فى كل فرع من فروع المعرفة والثقافة ليكونوا الصحبة المنتقاة من أصدقائها ، يعنى كانت تجمع بين أصدقائها أحسن طبيب ، وأحسن مهندس ، وأحسن كاتب ، وأحسن صحافى ، وأحسن عازف ، وأحسن سياسى .

ويستطرد قائلا : كانت - فى رأيى - مثل النحلة ، تأخذ من كل وردة رحيقها ، وهذا فى اعتقادى هو الذى صنع أم كلثوم ، فلم تكن مجرد امرأة ، بل كانت مؤسسة.

وإعجابي بها كان نابعا من أنها استطاعت أن تكافح ، وأن تتغلب على الفقر والجهل واستطاعت أن تحفر لنفسها هرما شامخا بين العظماء ، وأن تكون السيدة الأولى في مصر من دون أن تتزوج ملكا أو رئيس جمهورية !

* وما هي المواقف التي لا تنساها لأم كلثوم ؟

– في الحقيقة ، هناك كثير من الوقفات الشجاعة التي أذكرها لهذه السيدة العظيمة ، أذكر منها مثلا ، أنها عام ١٩٤٢ أقنعت النحاس باشا بالعدول عن اعتقالي ، وكنت وقتها رئيسا لتحرير مجلة " الاثنين " وقالت له : إنك بهذا العمل ستذكرالناس به كل يوم ، والأفضل أن تتركه يكتب كل أسبوع ، واقتنع النحاس وألغى قرار اعتقالي .

والشيئ الأخر الذي أذكره لأم كلثوم ، أنها كانت متحمسة جدا لإصدار " أخبار اليوم "

وكانت كلما قابلتني تؤكد على أمنيتها بأن تكون هناك جريدة مصرية كبيرة ، وكانت تشجعني لإصدار هذه الجريدة . ولذلك فعندما أصدرت (أخبار اليوم) كانت أول من زار المطبعه ، وذهبت إليها في منزلها لأعطيها أول نسخة خرجت من المطبعة.

موقف آخر يذكره الكاتب الكبير ، فيقول :

– في يوم من الأيام غضبت إحدى الحكومات من " أخبار اليوم " فاتصل وزير المالية بكل البنوك لإيقاف القروض عن الجريدة حتى لا تستطيع أن تصدر .

وكانت الجريدة تعتمد على قروض البنك لأنها تحتاج إلى رأس مال ضخم ، وكان معنى كلام وزير المالية أن تقفل " أخبار اليوم " في هذا اليوم جاءتني أم كلثوم وقالت لي : عندي لك مفاجأة ، سوف أعطيك المال الذي يلزمك لاصدار جريدتك هل تكفيك مائة ألف جنيه ؟!

قلت لها لا : أنا لا أحتاج لأكثر من سبعة عشر ألف جنيه ، قالت: وأنا مستعدة ، تفضل !

ويسرح مصطفى أمين في أعماق الماضي ليلتقط ذكرى معينة يتوقف عندها ويحكيها ، فيقول : في يوم من الأيام بينما كنت سجينا ، جاءني (شاويش السجن) وقال لي : أنت مطلوب في المستشفى ، اندهشت وذهبت إلى المستشفى ، فقال كبير أطباء السجن لي : اخلع " جاكتتك " ونام على الترابيزة ، فنمت ، فمال علي ، وقال لي : أم كلثوم بتقولك أنها

حتغنى أغنيه فيها كام بيت شعر بتهديها لك !!

ثم اعتدل بسرعة ، وقال لى بلهجة صارمة وشخط : قم ، واذهب إلى زنزانتك . ويضحك مصطفى أمين ويقول : وفعلاً غنت أم كلثوم فى تلك الليلة " الأطلال " وتضمنت البيت الشهير "أعطنى حريتى ، أطلق يدى " .

* كان لابد أن نصل إلى دور السيدة إيزيس طنطاوى زوجة الكاتب الكبير مصطفى أمين ، وأثرها فى حياته :

قال : لا أنسى فضل زوجتى التى قامت بتهريب الخطابات التى كنت أكتبها لأخى على أمين من داخل السجن (حين كانت الكتابة ممنوعة ، وممنوع دخول أى ورقة أو قلم إلى زنزانتى)

* ومتى تعرفت عليها ؟

- فى السجن !

* كيف ؟

- هى قصة غريبة فعلاً ، ورغم أنها عاشت فى بيتنا - فهى ابنه عمتى - إلا أننى لم أرهامطلقا قبل دخولى السجن ، كنت أقضى يومى كله فى الجرنال ، فأنزل من البيت وهى نائمة ، وأعود فى المساء فتكون قد نامت .

وعندما دخلت السجن كانت بناتى توصلن الطعام إلى فى أيام الزيارات ، وفى إحدى تلك الزيارات شعرت أنهن بحاجة إلى تغيير هذا الجو الكئيب ، فطلبت منهن أن يسافرن إلى عمهن على أمين فى لندن .

وفى هذه الأثناء فكرت العائلة من الذى سيقوم بمهمة توصيل الأشياء التى أحتاج إليها فى السجن . ووقع الاختيار عليها ، وكانت متحمسة لقيامها بهذا الدور - ولم تكتف بهذا فقط بل قامت - رغم الرقابة الشديده - بتهريب كل الخطابات التى كانت عبارة عن مقالات وقصص ، وهربتها إلى انجلترا إلى على أمين الذى أعاد تصديرها إلى سعيد فريحه لينشرها فى مجله الصياد اللبنانية

وهكذا نشأت قصة حب عميقة بينى وبينها وأنا فى السجن ، وقررت أن أتزوجها فور خروجى منه ، وهذا ما حدث .

* ما هو شعورك وأنت ترى أو تسمع عن نساء اخترن مجالات صعبة ليعملن بها ؟

–أرحب بهذه السيدة جدا ، وأشجعها ، وأحترمها . وأحترم أيضا الزوج الذى يترك لها الحرية لاختيار هذا المجال الصعب .

ويستطرد قائلاً : أعتقد أننى بذلت جهودا ضخمة من أجل المرأة فى بلادى ، وأعتقد أيضا أننى كنت وراء تعيين أول وزيرة فى مصر .

* كيف ؟

– خضت أولا حربا طويلة فى الأربعينات على صفحات " أخبار اليوم ، طالبت فيها بإعطاء المرأة حق الانتخاب وقامت قائمة أئمة المساجد الذين اتهمونى بالكفر والإلحاد وأصدروا فتوى أن كل من يلمس جريده "أخبار اليوم " فهو كافر !

ولم أيأس من مطالبتى هذه ، وزاد توزيع " أخبار اليوم " ولم ينقص ، بل تضاعفت أرقام التوزيع على رغم الفتاوى والاتهامات الظالمة . وبعد ثورة(يوليو) قلت لجمال عبد الناصر إن ثورة ١٩١٩ حررت المرأة وأدخلتها الجامعة، ورأيى أن تمنح الثورة (يوليو) للمرأة حق الانتخاب فتردد ، وقال لى : الرأى العام سيثور ، وقرر أن يرجئ هذه الخطوة قليلا .

وفى إحدى زيارات الرئيس تيتو لمصر لاحظت مدام تيتو أن جمهور المستقبلين الذين يصطفون لاستقباله على الطريق يخلو من أية سيدة ، فسألت جمال عبد الناصر: هل حبستم كل نساء مصر ؟ أنا لم أرى إلا رجالا ، وبعد هذه الزيارة قرر عبد الناصر منح المرأة حق الإنتخاب !

ويتوقف الكاتب الكبير قليلا ثم يقول :

تجربتى تؤكد أن المرأة النائبة ممتازة فى البرلمان ، فقد عايشت وأيدت أمينة شكرى وراوية عطية . فقد نجحت المرأة فى التمثيل الشعبى ، ووقفت جريدة " أخبار اليوم "خلف هؤلاء النائبات بشدة فى المعارك الانتخابية ودخلن المجلس ، وأثبتن جدارتهن .

* وإذا خرجنا عن نطاق مصر فمن تجد من الشخصيات النسائية العالمية اللاتى لاتنساهن ؟

- أذكر السيدة بندرانيكا ، وأنديرا غاندى ، والسيدة روزفلت (زوجة الرئيس الأميركى الراحل) ويشرح أسباب إعجابه بهذه الشخصيات ، فيقول :

السيدة بندرانيكا كانت زوجه أول زعيم سياسى . اغتيل زوجها ، فكان أن أخذت مكانه واستطاعت أن تملأ هذا المكان ، وقد التقيت بها شخصيا ، وعندما رجعت إلى مصر أرسلت لى هدية عبارة عن علبه شاى (سيلان) الشهير . والغريب أنه رغم شهرته العالمية إلا أنه لم يعجب عبد الحليم حافظ والملحن كمال الطويل عندما قدمته لهما ، وقالا: والله العظيم الشاى المصرى أحسن ألف مرة ، وكان الشاى المصرى يومئذ مخلوطا بنشارة الخشب !! أما السيدة روزفلت ، فقد قابلتها عندما سافرت مع والدى وكان وزيراً مفوضا فى أمريكا وأعجبنى فيها اهتمامها البالغ بقضايا المرأة ، وأنها سيدة نشيطة جدا ، ولكنها غير جميلة بالمرة . والغريب أيضا أن زوجها كان جميلا ، ولكن ذكاءها كان حادا ، فغطى على قبح شكلها .

السيدة أنديرا غاندى ، أعجبنى فيها أنها كانت متقمصه روح والدها نهرو لدرجة أنها من فرط إعجابها به كانت تحب تقليده فى كل شئ ، وكانت ذكية جدا ، وخطيبة ممتازة باللغة الإنجليزيه .

* ولماذا فى رأيك قتلت أنديرا غاندى ؟

- أعتقد أن هذا ثمن العنف ، فقد كانت تتميز بالعنف بعض الشئ .

* وهل تعتقد أن المرأة الحاكمة أعنف من الرجل الحاكم ؟

- هناك قول مأثور لإمبراطور إيران السابق هو : " إن المرأة إذا حكمت ، أصبحت مفترسة ". ويضحك مصطفى أمين ويقول :

وبالفعل تصادف أن بعض النساء اللاتى حكمن كن مفترسات ، فجولدا مائير ، كانت أعنف رؤساء الوزارات فى إسرائيل . وكذلك زوجة ماركوس ، وكليوباترا ، وشجرة الدر التى قتلت زوجها .

الفصل الخامس

الصحافة العربية تقدمت في الطباعة ، وتأخرت في الحرية

قلت للكاتب الكبير مصطفى أمين : أنت تبالغ فى التمسك بالأمل ، وتطالبنا بأن نفعل الشئ نفسه فى زمن الإحباطات المتوالية ، فليست هناك بارقة أمل تلوح فى الأفق تنذر بقرب النهاية للمشاكل والأزمات سواء على المستوى العام أو المستوى الخاص ، فالشباب حائر ، ومتخبط وأنت ما زلت تدعوه للتمسك بالأمل .

- لمعت عيناه بابتسامه واثقة وقال : أنا أصر على التمسك بالأمل ، وأرى أنه لا بديل عنه ، وبعض الناس يظن أن طريقى كان مفروشاً بالورود ، وهذا لم يحدث . فقد كان الطريق شاقاً ومضنياً ، فأنا مثلا اشتغلت بالصحافة وعمرى ١٤ سنة ، وذهبت لمقابلة جميع رؤساء تحرير الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية لأعرض عليهم العمل مجاناً فرفضوا ، ومنهم خليل ثابت رئيس تحرير " المقطم " والدكتور محمد حسين باشا رئيس تحرير "السياسة" وأميل زيدان صاحب " دار الهلال " وأحمد حافظ عوض بك رئيس تحرير "كوكب الشرق " .

كل هؤلاء رفضوا أن يشغلونى مجانا وابتسموا لى وقالوا "عندما تأخذ الشهادة العليا تعال " .

ولم أهدأ بل بحثت عن شخص كبير فى السن مناسب كغطاء ويصلح للتقدم لرؤساء التحرير ويقنعهم .

وبالفعل وجدت الشخص المناسب ، كان شقيق أحد أصحابى حاصل على ثانوية عامة وكان جسمه طويلا وعريضا وله شارب فقلت : هذا هو الشخص المطلوب .

وعرضت على هذا الشخص ، وكان اسمه حسن ، أن يعمل فى الصحافة وقال لى : أنا لا أفهم شيئا فى الصحافة .

قلت له : سأكتب لك المقالات وتقوم أنت بنقلها بخطك وتقدمها للمجلة ثم تحصل أنت على المرتب أول كل شهر .

فوافق .

وكنت قد قرأت إعلانا عن صدور مجلة جديدة اسمها " غرائب " وعنوانها فى شارع محمد على ، فكتبت المقالات وأخذت حسن وقلت له : ادخل بهذه المقالات وقابل رئيس

التحرير . فدخل وقابل رئيس التحرير وسلمه الشغل ، فقرأه ثم قرر تعيينه بـ ١٢ جنيها شهريا .

* وهل كنت تقتسم معه هذا الراتب ؟

- لا .. أنا قلت له من البداية أنه سيأخذ المرتب وسأكتب أنا المقالات التى يوقعها باسمه .

* وما هى نوعية هذه المقالات . هل كانت سياسية أم ثقافية وفنية ؟

- أنا كتبت مقالات سياسية ونقدا مسرحياً ومواضيع فنية وأدبية ووضعت أفكاراً لصور كاريكاتورية . وبسبب فكرة إحدى الصور الكاريكاتورية التى وضعتها أقفلت المجلة لأننى كنت أهاجم فيها حسين صدقى رئيس الوزراء فى ذلك الوقت . وبعد نشر الكاريكاتير اجتمع مجلس الوزراء وأقفل الجريدة نهائيا .

* وماذا فعلت بعد إغلاق المجلة ؟

- كان الأستاذ محمد التابعى متابعا للمجلة ومعجباً بها، وبعد إغلاقها اتصل برئيس تحريرها وطلب منه أن يأتى للعمل معه فى روز اليوسف بشرط أن يحضر " حسن " معه . وفعلا انتقلت مع حسن إلى روز اليوسف ثم أغلقت روز اليوسف فاشتغلت مع توفيق دياب فى جريدة " الضياء " ثم أقفلوها هى أيضا . فانتقلنا إلى جريدة " الحرية " ثم "الإخلاص " ثم جريدة اسمها " النهاردة " وبعد ذلك اشتغلت مع التابعى فى مجلة اسمها " الربيع " أقفلوها فى الأسبوع نفسه . فأصدر جريدة ثانية اسمها " مصر الحرة " أقفلوها .. وهكذا ... يعنى (تلطمت) من جريدة إلى أخرى ولم أيأس .

ويستطرد مصطفى أمين قائلاً .. ظللت ثلاث سنوات أشتغل مجانا فى " روز اليوسف " دون توقيع ، أشتغل كل شئ ولا أستكبر على أى شئ يطلب منى ، ولا أتقاضى مليما . وفجأة وجدت حجم المقالات التى كنت أكتبها وتنشر بالمجلة يتقلص ، وبعد أن كانت تملأ ٢١ صفحة أصبحت ١٨ صفحة ثم ١٤ صفحة ثم ٣ صفحات .

فذهبت إلى حسن أسأله .. لماذا يحدث ذلك ؟

فقال : لا أعلم .

فاستجمعت شجاعتي وذهبت لمقابلة الأستاذ التابعي ومعي مقالات الأسبوع وعرضتها عليه فقلت له : هذه مقالات سياسية وهذه قصة الأسبوع وهذه مقالة مترجمة ، وهذا نص مسرحي .. وهذه أخبار .

وذهل محمد التابعي وسألني : هل هذه أول مرة تعمل بالصحافة ؟ فقلت له : نعم .

فقال : سوف تعين فوراً .

وبالفعل تم تعييني وبعدها بشهور صدر قرار بتعييني نائباً لرئيس التحريرفى مجلة "روز اليوسف" وكان عمرى وقتها ١٧ سنة .(كنت لا أحمل شهادة الكفاءة (الإعدادية) وكل المرؤوسين لى من خريجي الجامعة . وكلهم أكبر منى .

ويقول مصطفى أمين : وهذا ما أتمنى أن يفهمه الشباب فأنا ألاحظ أنهم متعجلون ورغم أننى أعطى لهم الأعذار وأشعر بتعقيد الحياة من حولهم إلا أننى أتمنى أن يصبروا قليلا وينتظروا أن يجنوا ثمار عملهم . فتاريخ كل الذين حققوا نجاحا فى أى مجال من المجالات لا يخلو من إحباطات ومتاعب ولا تحفه الورود بل من المؤكد أنه شهد كثيراً من الأشواك والدموع .

ولهذا أتمسك بالأمل وأدفع عن نفسى هذا الاتهام لأننى أعتبر أنه لاحياة بدون أمل .

* لماذا لا ترد على من يهاجمونك ومنهم هيكل ؟

- بالنسبة لموضوع عدم الرد على الشتائم التى توجه إلىّ والهجوم الذى يشنه البعض ضدى فأنا آمنت بمبدأ منذ بداية حياتى وهو عدم الرد على أى هجوم أو شتائم . وأحب أن أقول إن تجربتى علمتنى أن كل ضربة توجه إلى ظهرك تدفعك إلى الأمام . وقد استفدنا من جميع الضربات واعتبرنا أن هذه الضربات نفعتنا أكثر مما أضرتنا .

ويستطرد قائلا : وهذا المبدأ تعلمته فى أول حياتى الصحفية وكنت وقتها فى روز اليوسف وكان التابعى هو رئيس تحريرها ووصل توزيعها فى ذلك الوقت إلى ٨ آلاف نسخة وكنا نفكر كل يوم فى تطوير المجلة لنزيد التوزيع بلا فائدة وظل رقم التوزيع ثابتاً .

كانت هناك مجلة اسمها " الكشكول " توزع ٣٠ ألف نسخة وكانت هذه المجلة تهاجم

وتشتم سعد زغلول واقترح الدكتور سعيد عبده - وكان طالبا بكلية الطب ومحررا معنا فى الوقت نفسه بالمجلة - أن نشتم " الكشكول " ، وفعلا كتب مقالة يشتم فيهـــا "الكشكول" .

وارتكب " الكشكول " أكبر غلطة فى عمره عندما رد على مقالة روز اليوسف ، حيث ارتفع التوزيع من ٨ آلاف نسخة إلى ١٢ ألف نسخة واستمرت " روز اليوسف " فى معركتها مع الكشكول " فزاد توزيعها إلى ٣٠ ألفا وانخفض توزيع الكشكول ليصل إلى ٨ آلاف نسخة .

وهذا ما جعلنى أدرك أن الرد على الشتائم يخدم الشخص الذى يهاجمنى . وأنا شُتِمت من صحافيين فى جميع البلاد العربية وليس فى مصر فقط .

فمرة مثلا كتبت أطالب بالعفو عن رشيد الكيلانى رئيس الوزراء الأسبق فى العراق الذى قام بالثورة ضد الملك والإنجليز فأمر نورى السعيد رئيس الوزراء فى ذلك الوقت - بمصادرة " أخبار اليوم " وعدم توزيعها وأعطى أوامره لجميع الجرائد فى العراق أن تشتمنى . وصدرت فعلا هذه الجرائد كلها وهى تشتم "أخبار اليوم " ومصطفى أمين . وبعد الأزمة سمح لجرنال "أخبار اليوم "بالدخول إلى العراق فإذا بالإقبال يتضاعف على الجريدة . وهكذا استفدنا من الشتائم التى دعمتنا وزادت من توزيعنا .

ويسكت مصطفى أمين قليلا ثم يقول : أما بالنسبة لهيكل فأنا سامحته . ولا أحمل له أى ضغينة فى قلبى .

* ولكن يبدو أن الجرح بينكما كان غائرا فلم تمحه السنون الطويلة . فمعلوماتى أن كثيراً من المحاولات تمت بينكما للصلح وعودة العلاقة كما كانت قبل السجن ولكنها كلها محاولات باءت بالفشل .. لماذا ؟

انا قلت أنه لو كتب و قال إنه افترى علىّ وأن ما قاله ليس صحيحا فسأقبل الصلح ، وهذا بالطبع لن يحدث لأن معنى ذلك أن يعترف بأنه كاذب .

ويستطرد قائلا : ولكن أنا دائما لا أميل إلى الانتقام ولا أطلب حقى من إنسان ظلمنى بل أترك الله يفعل ذلك . وأقرب مثل على هذا أننى لم أتقدم ببلاغ ضد صلاح نصر رئيس جهاز المخابرات المصرى ولم أطالب بالتحقيق معه فى وقائع التعذيب التى تعرضت لها فى السجن ولكنى فوجئت بأحد المحامين بعد أن قرأ كتابى "سنة أولى سجن" يتقدم بهذا البلاغ ، وعندما

سألته لماذا فعل ذلك قال : إن القانون يسمح لمن يرى أية جريمة يبلغ عنها وقد قرأت فى كتابك جريمة إنسانية كبيرة ، وكان من واجبى أن أتقدم بطلب التحقيق مع مرتكب هذه الجريمة .

* من الانتقادات الموجهة إليك أيضا أنك تكرر دائما حماسك للتجربة الحزبية ، ولا تكتب دائما منتقداً ممارستها التى تفتقر فى كثير من الأحيان إلى الالتزام بالمصلحة الحقيقية للبلاد .. فما ردك؟

– بالفعل سألنى عدد من المسئولين والوزراء وقالوا هذا الكلام ولكنى أجبتهم قائلا : إن الشعب ظل ٣٠ عاماً مكمما لا يستطيع أن يفتح فمه . فمن حق هذا الشخص الذى وضعت يدك على فمه لمدة ٣٠ سنة إن يخطىء ويلعن ويشتم لمدة ٣٠ سنة أخرى .

* كان لك موقف من الأحزاب عند قيام ثورة ٢٣ تموز (يوليو) وهو موقف مناهض ثم تحمست لفكرة قيام الأحزاب فى ١٩٧٨ – فما هو سر هذا التغير ؟

– هذا التغيير لم يطرأ علىّ أنا وحدى ، ولكن حدث فى العالم كله ، لدرجة أن الدول التى تقوم على نظام الحزب الواحد منذ عشرات السنين بدأت تشعر بضرورة تعدد الأحزاب ، ومن يتابع ما يحدث فى الاتحاد السوفيتى وفى بولندا وفى الصين يدرك المعنى الحقيقى لفشل تجربة الحزب الواحد .

ويستطرد قائلا : يعنى إذا كان ربنا سمح بأن يكون هناك إنسان مسلم ، وآخر مسيحى ، وثالث يهودى فهل يمكن أن يجئ إنسان ويقول : لا .. أنا ربكم الأعلى طبعا غير معقول .

ويحكى أن الصحابة سألوا النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) عن رأى قاله ، فقالو له : هل هذا كلامك أم كلام الله فقال : بل كلامى أنا ، فقالوا : إذن فلنناقشه .

ويبتسم مصطفى أمين ويقول : فإذا كان الصحابة يناقشون النبى (صلى الله عليه وسلم) – المعصوم من الخطأ – فهل يعقل أن نخاف من مناقشة وزير التموين .

أنا رأيى أن الديمقراطية هى الشورى ، والشورى من أهم ركائز الإسلام .

نجيب محفوظ

نجيب محفوظ

أعتقد أن الرئيس جمال عبد الناصر ، أعطى الأدب والفن مساحة من الحرية لم يمنحها لغيرها من المؤسسات ، وكنا نعبر عن رأينا بالكناية والرمز لأن الحرية داخل حكم شمولى كانت له سطوته ، والرقابة فى داخله شديدة .. الحقيقة لم يصبنا سوء فى عهده على الرغم من أننا نمثل نوعا من المعارضة الذاتية أو النقد الذاتى ، بل بالعكس ، أخذنا أوسمة ، وحصلنا على جائزة الدولة التقديرية .. وكل شئ .

نجيب محفوظ


نجيب محفوظ

الفصل الأول

مشاعر الكاتب وأحاسيسه ترتبط بمكان معين والقصاصون الجدد متنوعون وموهوبون

عالم نجيب محفوظ خاص جداً ، وضع بنفسه قوانينه الصارمة وخط بيديه حدوداً لكل منطقة من اهتماماته الإنسانية ، ورسم بوضوح أهدافه ولم يكن أمام عينيه فى رحلة الصبر الطويلة هدف إلا الأدب ، أخلص له وأعطى له بحق حياته بل جعله محوراً لهذه الحياة تدور باقى الأشياء فى فلكه وطبقا له .

وكان قلم نجيب محفوظ هو " المشرط " الذى نفذ إلى أعماق هذا الشعب ووصف بأدبه صورة خالدة لمسيرة الشعب منذ أوئل القرن .

فأرخ الأدب أو أدَّب التاريخ ، وكانت روائع أدبه الخالدة هى قلب مصر الحقيقى محفوظاً فى سطور وأوراق !

وهنا فى هذا الفصل نحاول الدخول إلى عالم نجيب محفوظ ..

* إحساس الحى الشعبى وملامحه ينبض فى جميع أعمالك ، فكيف كان يتفاعل الحى الشعبى مع التطورات التى شهدتها مصر خلال هذا القرن وهل تغيرت سمات أهل البلد الآن عما قبل ؟

- كانت الأحياء الشعبية ميداناً أساسيا لثورة ١٩١٩، وكانت تؤلف فيها التظاهرات التى تضم الرجال والنساء وتقوم المعارك بينهم وبين الإنكليز، ويظلون على ولائهم الوطنى لآخر لحظة .

* وهل لا يزال الحى الشعبى يعبر فى وقتنا الحاضر عن نبض الشعب الحقيقى وأصالته ، ويحافظ على أصالة المصريين أم أنه تأثر بانقلاب القيم الذى شهده المجتمع أخيراً ؟

- الحى الشعبى لا يزال يعبر - على الأقل فى المدن - عن روح المصرى الحقيقية الخالصة وأنا أوافقك على أن ما حدث فى المجتمع من تطورات سريعة أثر على هذه الروح عندما دخلت القيم الانتهازية والوصولية وانتشرت بين طوائف مختلفة ، ولكن عموما عندما تقارنين بينه وبين الطوائف الأخرى فستجدين ابن البلد لا يزال محافظا على القيم الشريفة أكثرمن غيره .

* قلت مرة : " إن ما يحركنى حقيقة هو عالم الحارة .. فهو عالمى الأثير " هذا بلا شك واضح فى عدد كبير من أعمالك أهمها " أولاد حارتنا " و " الثلاثية " و " الحرافيش "

و " حكايات حارتنا " وغيرها ؟

- يخيل لي أنه لا بد من ارتباط بمكان معين ، أو شيء معين يكون نقطه انطلاق للمشاعر والأحاسيس ، فالكتاب الذين نشأوا في الريف مثلا ستجدين أن الريف هو حجر الزاوية في أعمالهم ، فلابد للأديب من شئ ما يلهمه .

وأنا ولدت في الجمالية (ولد أديبنا الكبير في ١١ ديسمبر ١٩١١) وعشت في حواريها وأزقتها ، وكنت أتردد بانتظام على مقهى الفيشاوى نهاراً ، حيث لا زحام بل يكاد يكون خاليا ، أدخن النرجليه ، أفكر وأتامل ، أمشي في الشوارع وعالم الحارة يحركني بالفعل ، هناك بعض الناس يقع اختيارهم على مكان واقعي ، أو خيالي ، ولكنني وجدت أن الحارة هي خلفية الأحداث لمعظم أعمالي ، وأعتقد أن الكاتب يسعى إلى أن يعيش في مكان يحبه ، ولذلك كان لابد أن أعيش رواياتي في مكان أحبه وأعرفه .. في الحارة .

* كنت السابع في ترتيب إخوتك ، وقلت إنك أحسست بأنك نشأت وحيداً لأن الفارق بينك وبين أصغر إخوتك في السن كان خمس عشرة سنة ، وقلت إنك لا تذكر في فترة طفولتك وجود إخوتك في المنزل ، فقط الوالد بعد أن تزوج بعضهم ، وسافر البعض الآخر ، فهل كان لنشأتك وحيداً أثر في اتجاهك إلى الأدب والتأمل ؟

- عندما أتذكر أشقائي أتذكرهم في بيوتهم وليس في منزلنا ، ولم أعش حياة الأخوة داخل المنزل فقد كان الفرق بين عمري وأعمارهم كبيرا ، ولذلك كانت علاقات الأخوة التي أتابعها في حياتي باهتمام لأنني كنت محروما من الإحساس بالأخوة . لهذا تجدين في أعمالي وصفا لعلاقات الأخوة ، يبدو هذا في "الثلاثية" وفي " بداية ونهاية " وفي " خان الخليلي " وغيرها .

* وماذ عن العلاقات الأخرى .. علاقتك بوالدك ووالدتك ؟

- والدتي كانت مفتونة بالآثار ، وكانت تصحبني وأنا طفل إلى الأنتيكخانة والأهرامات ، وكذلك كانت تصحبني معها - لأنني كنت الوحيد المتبقي في البيت - إلى زيارات الأهل والجيران وهكذا رأيت كثيرا من مناطق القاهرة ، وشبرا ، والعباسية ، وكثيرا من الأحياء . ولا أنسى النساء اللاتي كن يترددن على البيت ليقمن بإعداد الأحجبة وأعمال السحر ، وكنت أرقبهن

عندما يجئن إلى أمي ، يجلسن معها ويتحدثن ، أما أبي فهو أول من أشعل اهتمامي بالسياسة ، كان متحمساً لسعد زغلول ، وكان أبي موظفاً .

* والأصدقاء يا أستاذ نجيب ، أين هم في حياتك ؟

– كان لي أصدقاء في الجمالية ، ثم انتقلت إلى العباسية في شبابي وكونت شلة العباسية ومنهم فؤاد نويرة وأحمد نويرة وهما شقيقا الموسيقار عبد الحليم نويرة رحمه الله ، وقد رحلا أيضاً في عمر مبكر ، كانت سهراتنا دائماً في الحسين ، خصوصاً في رمضان .

* جمعت في قراءاتك بين كنوز التراث وروائع الأعمال العالمية ، فما موقع الأدب العربي بين الآداب العالمية ؟

– في الحقيقة الشعر العربي بأخيلته وبلاغته يقف في مصاف أي شعر عالمي .

* والرواية ؟

– لا .. الرواية وليدة حديثة ، يعني لا تستطيع أن تقف موقف الشعر ، الشعر تراث قديم وليس عندنا في تاريخ الرواية كتاب يقفون إلى جانب الشعراء العرب .

* ماهو أعظم أدب روائي عالمي في رأيك ؟

– سؤال صعب .. لأن لكل بلد قيمتها .. بلا شك .

* ألا ترى أن الأدب الروسي من أهم الآداب العالمية ؟

– بالطبع الأدب الروسي من أعظم الآداب العالمية ، ونستطيع أن نقول أنه في القرن التاسع عشر لم يكن هناك روائيون في مستوى الروائيين الروس .

* القراءة بالطبع هي زاد الأديب ، فهل كنت تضع منهجا خاصا لقراءاتك ؟

– ساعدني في منهجية القراءة كتاب في تاريخ الأدب يستعرض تاريخه حتى سنة ١٩٣٠ واسمه " درنك ووتر " ولأنني بدأت متأخرا في دراسة الأدب ، فلم أدرس أي أديب دراسة كاملة . كان هذا الكتاب يرشدني إلى الأعمال المتميزة لكل كاتب فقرأت " الحرب والسلام "

لتولستوى و " الجريمة والعقاب " لدوستويفسكى ، وفى القصة القصيرة قرأت لتشيخوف ، وموباسان ، وكافكا ، وبروست ، وجويس ، وشكسبير ، ويوهن أونيل ، وإبسن وستريندبرج ، وملفيل ، وبوس باسوس ، ولم يعجبنى همنغواى إلا فى روايته " الشيخ والبحر "

أما الكتاب العرب ، فقد كانت روافد قراءاتى المهمة هى قراءات التراث ، عرفته فى سن مبكرة عندما درسته فى المرحلة الثانوية فقرأت " الكامل " للمبرد ، والأمالى " لأبى على القالى .

* ومن أكثر الكتاب ، سواء العالميين أم العرب الذين أثروا فى تكوينك الأدبى ؟

- كلهم أثروا فى هذا التكوين ، ولكننى لم أتأثر بأحدهم وحده ، وكانت تنصهر كتاباتهم داخلى وتمتزج بى ، ولم أتأثر بالأساليب الحديثة ، ولا بتكنيك الكتابة لدى أى منهم ، فعندما أبدأ الكتابة أطرح كل هذا ، وأضع تكنيكى الخاص النابع من ذاتى وبيئتى .

* أعرف أنك تحرص على قراءة أعمال الأدباء الشبان ، ومتابعة إبداعاتهم الأدبية ، فهل تعتقد أن من بين هؤلاء يمكن أن يخرج نجيب محفوظ آخر أو توفيق الحكيم أو يوسف إدريس ؟ أم هناك فجوة كبيرة تفصل جيل الأدباء الشبان ؟

(بحماس وانفعال حقيقى) لا .. لا .. هذا جيل متعدد ورفيع المواهب ، لا تشكى فى هذا سواء فى مصر أم فى البلاد العربية أنا أقرأ باستمرار إنتاج الأدباء الشبان ، وسعيد بهم جدا .

* ومن هؤلاء الذين تتنبأ لهم بمكانة كبيرة فى عالم الأدب ؟

- الأسماء كثيرة وبعضها أصبح معروفاً الآن اسمه فى عالم الأدب ، ولكنى لن أذكر الأسماء حتى لا أنسى أحدا .

* وهل ترى أن مصر لا تزال تتمتع بالريادة الأدبية فى الوطن العربى .. أم أن دورها تراجع ؟

- المقارنة الدقيقة لا أملكها ، لأننى أعرف وجوها عربية عظيمة ، أعرفها بالصدفة لأنه ليس لنا سوق عربية مشتركة للكتاب بحيث نقرأ وندرس ونستطيع المقارنة ، هذا سؤال يمكن توجيهه إلى الذين يؤرخون للأدب العربى ككل مثل على الراعى ، ومحمد حسن عبد الله .

* الاتجاهات والمدارس الأدبية فى العالم ، أيها أقرب إلى مدرستك الأدبية ؟

- أنا قرأت من الأدب قديمه وحديثه ، وأعتقد أننى تأثرت به كله ، ولم أقف موقف الرفض الكامل أو عدم الفهم إلا مع " اللارواية " أما اتجاهى فأعتقد أنه " الواقعية " .

* أستاذ نجيب .. هل الأديب يحتاج إلى جو ديمقراطى ، مستقر ليبدع ، أم أن معاناة القهر أو كبت الحرية تحفز الأديب وتستفز مشاعره وتشحنها فيخرج الإبداع أكثر تدفقا وحرارة ، أم أنك مع أى الرأيين ؟

- أنا كتبت حتى "الثلاثية " فى عهد ما قبل الثورة ، وكان إلى درجة كبيرة يسمح بالحرية فى الكتابة ، لكن كان هناك ظلم اجتماعى شديد ، فتوفر لى العاملان معا - جو يسمح بالحرية ، وفى نفس الوقت ، ما يتحدى الأديب ويستفزه ويدفعه إلى الكتابة .

* قلت مرة إن أحب أعمالك إليك هى " الحرافيش " و " أولاد حارتنا " والثلاثية فهل هذا صحيح ؟

- لا أتذكر بالضبط ولكن أستطيع أن أقول إن " الثلاثية " و " الحرافيش " و" ليالى ألف ليلة " - على الأقل - هى أهم أعمالى .

* بعد تغير الكثير من القيم فى مجتمعنا ومنها القيم الثقافية والعلمية والفكرية ، وانخفاض مستوى الثقافة فى مصر ، هل تعتقد أنه من الممكن أن يشهد منحنى الحياة الفكرية والثقافية ارتفاعا آخر ؟

- هناك عاملان أساسيان يؤثران فى الثقافة الجادة ، الأول هو الأجهزة الحديثة لأنها تنافس الثقافة منافسة شديدة ، أما العامل الثانى فهو الأزمة الاقتصادية . وأعتقد أنه بعد زوالها سيعود البلد إلى توازنه وترجع للثقافة الجادة مكانتها ولو فى الحدود التى تسمح بها المنافسة مع الأجهزة الحديثة .

كلنا كان وفدياً وجيلنا حمل قيم الاستقلال والديموقراطية

كتبت السيناريو ولم أكتب يوما بقصد السينما فالأدب هو الأدب

* نكمل الحوار مع أديب مصر ، نجيب محفوظ ، لندخل فى دائرة السياسة ، وكيف تبلورت رؤيته السياسية وأثرت فى إبداعه الأدبى والفكرى ، وما هى الطبقة التى حفزته لتبنّى قضاياها من خلال أعماله .

* قلت مرة إن أعمالك سياسية ، بمعنى أن القصة يمكن أن تخلو من الحب ، أو من أى شئ آخر ، ولكن لا يمكن أن تخلو من السياسة ، فهل هذا صحيح ؟

- ليس دائما .

* ولكنك قلت هذا !

- ربما كان هذا أيامها .

* دعنا نتكلم عن نجيب محفوظ السياسى .. نحب أن نتعرف على المناخ أو الأرضية السياسية التى نشأت فيها ونبتت بها موهبتك الأدبية ، ثم نضجت وتبلورت ؟

- بدأت أتقدم إلى الوعى فى أعقاب ثورة ١٩١٩ ، فأنا متأثر جدا بدعوة الاستقلال والديمقراطية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت ، وبالحرية الفكرية وما يتبعها من حرية التعبير .

* كنت وفديا يا أستاذ نجيب .. أليس كذلك ؟

- نعم .. بالطبع كلنا كنا وفديين ، ومشينا فى التظاهرات وتحمسنا لكل معارك الوفد ، ضد السراى والإنكليز .

* وهل تغير انتماؤك فى فتره من الفترات .. أم ظللت وفدياً على طول الخط ؟

- كنت وفديا على درجات حتى قامت الثورة .

* من هم نجوم المجتمع السياسى فى المجتمع المصرى فى فترة نضج موهبتك الأدبية ، وكيف كنت تراهم أنت وأصدقاؤك ورفاق الحى ؟

- نجوم السياسة أيامنا كانوا أبطالاً وطنيين ، وكلهم عرفناهم من خلال تضحيات فى سبيل الوطن .

* ومن كان أهم هؤلاء الأبطال ؟

- سعد زغلول ، مصطفى النحاس ، وغيرهما .

* ارتبطت في معظم أعمالك بطبقة الموظفين ، فكيف كانت هذه الطبقة تعبر عن مصالحها السياسية في بداية مشوارك الأدبي ؟

- طبقة الموظفين كان أغلبها من الطبقة المتوسطة وكانت كلها تقريبا مع الوفد .

* هل كان الوعي السياسي بين هذه الطبقة قبل الثورة وفي بداياتها أقوى من الوعي السياسي لطبقة الموظفين الآن ، من حيث وعيهم بحقوقهم ومطالبهم ، وكيفية التعبير عن هذه الحقوق ؟

- في الحقيقة كانت المعيشة أبسط كثيرا فلم تكن عليهم ضغوط كبيرة ، عندما قامت الحرب العظمى الثانية وبدأت الحياة تتعقد كانوا يطالبون بتيسير الحال ، وعلى ذلك تحققت علاوة الغلاء وغيرها .

* ثورة (يوليو) ١٩٥٢ ، أين كان نجيب محفوظ منها ؟

- الثورة عندما قامت رحب بها الشعب كله ، لأنها جاءت في لحظة كان الشعب فيها ضاق بفساد الحياة السياسية ، وكانت البلد أصبحت تتوق حقا إلى العدالة الاجتماعية . وجاءت الثورة ممثلة للتطهير ، والعدالة الاجتماعية ، فأيدها الشعب تأييدا جارفا .

* وأنت ؟

- " معاه " .. طبعا .

* عاصرت بعد قيام الثورة ثلاثة رؤساء للجمهورية - لو اعتبرنا أن الرئيس محمد نجيب لم يقض فترة في السلطة تسمح لنا بالحديث عنه - فكيف كانت علاقتك بكل منهم كأديب ، تسعى إلى انتزاع أكبر مساحة ممكنة من حرية الفكر والتعبير ، كيف كانت علاقتك بعبد الناصر ، والسادات ، ثم حسني مبارك ؟

- أعتقد أن الرئيس جمال عبد الناصر ، أعطى الأدب والفن مساحة من الحرية لم يمنحها

لغيرها من المؤسسات ، وكنا نعبر عن رأينا بالكناية والرمز لأن الحرية داخل حكم شمولى كانت له سطوته ، والرقابة فى داخله شديدة .

الحقيقة لم يصبنا سوء فى عهده على الرغم من أننا نمثل نوعا من المعارضة الذاتية أو النقد الذاتى ، بل بالعكس ، أخذنا أوسمة ، وحصلنا على جائزة الدولة التقديرية ، وكل شئ .

* وعصر السادات ؟

– فى عصر السادات تراجع دورنا كأدباء ومفكرين إلى الظل ، والحقيقة ، حدث فى عهده نوع من الهبوط الثقافى والأدبى .

* والآن ، فى عصر الرئيس مبارك ؟

– الآن ، بدأ الجو الثقافى يتنسم هواء الحرية الحقيقى ، وينتعش المناخ الأدبى بالتوجه الحقيقى نحو الديموقراطية فى عهد حسنى مبارك .

* قلت إنه فى أيام عبد الناصر كانت هناك حرية فى التعبير ، ولكنها كانت حرية لها حدود لا يمكن تجاوزها ، ولذلك كنتم تلجأون إلى الرمزية فى كثير من الأحوال ، ألا تعتبر أن اللجوء إلى الرمزية والكناية هو قيد على القلم ، أو سجن آخر للأديب المفكر ؟

– الإنسان يتحايل على التعبير عندما يستحيل عليه التعبير الصريح المباشر .

* شخوص رواياتك الأدبية ، ما هى أدوارها السياسية والاجتماعية فى تاريخ مصر فى فتراته المختلفة ؟ "حميدة" مثلا ، فى "زقاق المدق" ؟

– والله أنا كتبتها على أنها حميدة ، جايز الناس استشفوا منها معانى أكثر ، ولكنى لم أقصد به إلا حميدة .

* شخصية كمال عبد الجواد ، ابن السيد أحمد عبد الجواد فى " الثلاثية " ربما كانت أقرب شخصياتك إليك من حيث التكوين الفكرى والإنسانى أليس كذلك ؟

– فعلا ، كمال عبد الجواد من الشخصيات القريبة جداً إلى شخصيتى فحياته الفكرية هى

حياة جيلنا ، وصراعاته وحيرته وتساؤلاته الفلسفية هى نفسها الصراعات والحيرة والتساؤلات التى مررنا بها فى شبابنا ؟

* ومحجوب عبد الدايم ؟

- يمثل الجانب الانتهازى فى المجتمع .

* ولو صورت شخصية محجوب عبد الدايم فى التسعينات ، بعد أن أصبحت الانتهازية أكثر انتشاراً ووضوحا ولم تعد الاستثناء كما كانت ، فكيف ترى شخصية محجوب عبد الدايم التسعينات ؟

- (ضاحكا) لا ، كانت تبقى حاجة تانية خالص .

* أستاذ نجيب .. ربطتك صداقة عميقة مع اليسار المصرى ، فكيف ارتبطت بهم ، وكيف أثرت هذه الصداقة على اتجاهك الفكرى والأدبى ؟

- والله أنا كان يعجبنى فى اليسارية توجهها إلى العدالة الاجتماعية ، وأنا عمرى ما وافقت على الشيوعية ككل ، وكانت لى اعتراضات دائما على فلسفتها وطريقتها فى الحكم . لكن مضمونها الإنسانى ، كنت متحمسا له .

* أعرف أن المخرج الكبير صلاح أبو سيف من أعز أصدقائك اليساريين ، فكيف نمت هذه الصداقه بينكما ؟

- بدأت علاقتى بصلاح أبو سيف عام ١٩٤٧ عندما قال صديقى فؤاد نويرة إن صلاح أبو سيف يريد مقابلتى ، وبالفعل قابلته فى شركة " تلحمى " السينمائية ، وقال يومها إنه قرأ قصة " عبث الأقدار " وتبين له أننى من الممكن أن أكون كاتب سيناريو جيدا ، وتعلمت بالفعل السيناريو على يد صلاح أبو سيف لأنه لم يكن عندى أية فكرة عن كتابة السيناريو ، فأهدانى مجموعة من الكتب فى فن السينما واشتريت أنا بعض الكتب الأخرى وبدأت صداقتنا ، وطلب منى أن أعمل معه باستمرار ، ولكننى اعتذرت لاننى متفرغ للأدب .

بدأت أكتب السيناريوهات . إما أن أكتب القصة والسيناريو ، أو أعد السيناريو لقصة .

كنت أكتب السيناريو فى الفترات التى كنت أتوقف خلالها عن الكتابة الأدبية ولو أنه عطلنى لحظة واحدة لتركته دون تردد .

وطلب منى مخرجون آخرون أن أعمل معهم ولكنى اعتذرت فقد كان صلاح أبو سيف مقلاً ، كان يعمل فيلماً فى السنة كان مريحا معى .

* ومتى تحول أول أعمالك إلى سينما ؟

- كان الجميع يقول أن أعمالى صعبة ولا تصلح لكى تتحول إلى فيلم سينمائى ، إلى أن أعد أحمد عباس صالح رواية " بداية ونهاية " لإذاعة صوت العرب ، وعندئذ التفت إليها أهل الفن والسينما ، وقالوا نريد هذه الرواية ، ورغم أنها كانت موجودة من قبل ، ولم يلتفت إليها أحد !

وكانت " بداية ونهاية " هى البداية ، ثم أنتجت معظم رواياتى بعد ذلك للإذاعة والسينما وأخيراً للتليفزيون ، ولكنى لم أكتب يوماً فى حياتى وعينى على السينما ، فالأدب .. أدب والدليل أن الروايات التى تحولت إلى أفلام تحولت بصعوبة شديدة .

الفصل الثالث

الصداقات المتنوعة والزواج الـــذى حـــدث فجـــأة

* فى حياة كل إنسان شخصيات أثرت فى حياته ، وكانت لها بصماتها الواضحة على تكوينه ، وحياة نجيب محفوظ عامرة بتلك الشخصيات المختلفة فى جوانبها الإنسانية المتفاوتة إلى حد كبير فى مستوياتها الفكرية والثقافية .

فالغريب مثلا ، أن من أهم المؤثرين فى أديبنا نجيب محفوظ شخصية " الفتوة " وابن البلد التى رسمها بدقة ، خصوصاً فى أبعادها النفسية والاجتماعية والفكرية كما لم يفعل أحد قبله أو بعده .

وامتزجت فى حياة نجيب محفوظ العريضة نماذج من شخصيات متباعدة فكانت له صداقات مع أدباء كبار وصحافيين وصداقات مع موسيقيين ورياضيين ، (وكان لاعب كرة قدم) فضلاً عن شلة العباسية " الحرافيش "

ونجول داخل ذخيرة نجيب محفوظ الحية النابضة ببشر يمثلون بالنسبة له كنزاً إنسانيا لا ينضب .

* توفيق الحكيم ماذا يمثل لـ " نجيب محفوظ " ؟

– (بإجابة قاطعة) هو أستاذ جيلنا كله فى الفن .

* وإحسان عبد القدوس ؟

– إحسان ، من أعظم الروائيين المصريين العرب .

* مصطفى أمين ؟

– علم من أعلام الصحافة .

* أحمد بهاء الدين ؟

– من أكبر المفكرين العرب .

* الدكتور يوسف إدريس ؟

– يوسف إدريس من الجيل الذى تلانا . إنه موهبة لامعة جداً

* جمال الغيطانى ؟

– قمة الرواية العربية فى الأجيال الصاعدة .

* يوسف القعيد ؟

– روائى جيد جداً ، وقصاص عظيم .

* أم كلثوم ؟

– قيثارة السماء (كتب نجيب محفوظ فى جريدة " الأيام " فى ٢١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٣ مقالا عن أم كلثوم قال فيه : " وما من جمود مثل أن تقارن أى صوت من الأصوات المصرية بهذا الصوت المتعالى ، فقل فى غناء أسمهان ، وليلى مراد ، ونور الهدى ماتشاء ألا أن تقارنه بصوت أم كلثوم فتضره من حيث أردت أن تنفعه وتهينه من حيث أردت أن تكرمه وتمرغه من التراب وقد أردت أن تسمو به فى السماء " .

* والموسيقار محمد عثمان ؟

– (ضاحكا) من أين تعرفينه ؟ هذا قديم قوى ، ومحمد عثمان هو قاموس الأنغام المصرية .

* ومحمد عبد الوهاب ؟

– هذا مطرب كل جيل .

* مطرب أم ملحن ؟

– مطرب ، وملحن .

* وماذا عن شكسبير ؟

– أحببت شكسبير ، أعجبتنى سخريته ، وفخامته ، ونشأت بينى وبينه صداقة حميمة وكأنه صديق على الرغم من أننى لم أره بالطبع ... !

* وعبد الناصر ؟

- لم ألتقي بعبد الناصر فى لقاءات خاصة ، ولكننى رأيته ثلاث مرات ، المرة الأولى عندما حصلت على وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى ، وصافحته يداً بيد ، والمرة الثانية عام ١٩٦٥ عندما التقى مجموعة من الأدباء العرب وكنت واحدا منهم ، والمرة الثالثة كانت عام ١٩٦٩ وكان عبد الناصر فى زيارة لـ " الأهرام " وقال لى يومها : " إزاى الناس اللى فى الحسين بتوعك ، بقالنا زمان مقريناش لك قصة " .

* ومحمد حسنين هيكل ؟

- الأستاذ حسنين هيكل هو الذى أرسل إلى يدعونى إلى الكتابة فى " الأهرام " وكان دائما يرحب بالأدب والأدباء. وأقام لهم فى " الأهرام " ركنا ركيناً ، وكان فى الحقيقة يحترم الدور (الطابق) السادس احتراماً فوق الوصف ، حيث كان الأستاذ توفيق الحكيم ، ثروت أباظه ولويس عوض ويوسف إدريس وكل كتاب "الأهرام" فى الدور السادس .

وكان هيكل صاحب فكرة " الملحق الأدبى " لأنه كان يولى عناية خاصة بالأدب والأدباء .

* من هم أصدقاؤك من الكتاب والشعراء ؟

- من أبرز الكتاب العرب الذين قرأت لهم " حنا مينه "، وقرأت للشعراء العرب قبل أن أقرأ للروائيين .

* معنى هذا أن الشعراء العرب أيضاً أهم من الروائيين العرب ؟

- طبعا ، الشعر العربى المعاصر حاجة عظيمة جدا .

* من أهم الشعراء العرب فى رأيك ؟

- السياب ، والبياتى ، ونازك الملائكة ، ونزار قبانى ، ومحمود درويش ، وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى ، وغيرهم كثيرون .

* أصعب شئ أن يتحول الصديق إلى عدو ، أن يتسبب فى ضرر أو حتى ألم معنوى لصديقه ، فهل تعرضت فى حياتك لمثل هذا الموقف ؟

- فى الحقيقة لم يحدث ذلك ، ولكن أذكر موقفاً تسبب لى فى أزمة نفسية ، ومضت الأيام

لتصبح هذه الأزمة من أهم العلاقات فى حياتى الأدبية . وكان سبب الأزمة التى تعرضت لها صديق ، وسبب التحول الذى حدث نتيجة لها فى صالحى هو نفس الصديق .

* هل تحكى القصة ؟

– بعد أن انتهيت من كتابة الثلاثية – التى كانت رواية وليست ثلاثة أجزاء كما حدث بعد ذلك – وتحمل اسم " بين القصرين " أمسك سعيد السحار بالنسخة المكتوبة بخط اليد وقال لى " إيه الداهية دى ؟ " كانت صدمة فظيعة بالنسبة لى ، وكانت صفحاتها قد بلغت ألف صفحة ، وقال كيف أطبع هذه ، هذا مستحيل ! وعدت إلى بيتى حزينا أشعر بانهيار كامل بعد عمل استمر سنوات وشعرت أنه أقرب وأعز أعمالى إلى ، وكان موقفا قاسيا بحق .

ومرت الأيام وقال لى الأستاذ يوسف السباعى فى نيسان (إبريل) ١٩٥٢ إنه سيصدر مجلة جديدة ، وسينشر الرواية فيها على حلقات . وصدرت بالفعل مجلة الرسالة الجديدة ، وبدأ نشر " بين القصرين " والغريب أن أول من شعر بنجاح الرواية بعد نشر أولى حلقاتها هو نفسه سعيد السحار فاتصل وطلبها منى ، ولكن اقترح تقسيمها إلى ثلاثة كتب حتى يمكن طبعها ، واقترح أيضا تسميتها بثلاثة أسماء مختلفة فأصبحت "قصر الشوق" و " بين القصرين " و " السكرية " .

* أستاذ نجيب ، وصفت عالم الحاره والفتوات فى معظم أعمالك ، فما هى علاقتك بعالم الفتوات ؟

– علاقتى بالفتوات ترجع إلى علاقتى بمنطقة الحسين ، ففى كل حارة أو حى فتوة . والفتوات أنواع ، نوع يمشى فى الزفة بعد منتصف الليل ، يغنى متزعما موكب جملة الفوانيس والصهبجية . وفى الزفة تكون أحسن فرصة للثأر ، حيث يعترض الفتوات الزفه وتنقلب إلى مذبحة !

أما النوع الثانى فهو الذى يتفق الفتوات فيه على العراك فى مكان خلاء ، بعيدا عن الزحام والحارة ، ويأتى كل منهما برجاله وتقع الضحايا من الجانبين ، وكانها حرب فعلية وتملأ الحارة سيارات الإسعاف التى تحمل المصابين والدماء تنزف من كل مكان فى أجسادهم ،

وتحرر المحاضر فى أقسام الشرطة . أما النوع الثالث فهو الرجل العملاق الذى يتمتع بقوة لا يستخدمها إلا إذا استفزه أحد ، يتحول إلى ثور هائج ، وهذا النموذج رأيته بعينى يقهر فرقة شرطة كاملة .

واستخدامى للفتوة فى رواياتى ، وخصوصاً فى " أولاد حارتنا " كان يرمز للقوة الغاشمة ، وأحب أن أقول إننى كما عرفت فتوات رجالا عرفت أيضا فتوات من النساء .

و" الفتواية " تملك قوة تستطيع معها أن تطيح برجل ، فأنا رأيت خناقة نسائية فى محطة الرمل ، وقف لها الميدان على رجل ، ولكن الفتوة المرأة لا تستخدم غالباً القوة ، بل يرتعد أمامها الرجال دون أن تمد يديها .

* أستاذ نجيب ، دعنا ندخل إلى دائرتك الخاصة ونسألك ، لماذا تأخرت فى الزواج ، هل كان هذا إحجاما عن الفكرة ؟

– فى الحقيقة كان عندى صراع داخلى ، خشيت أن يعطلنى الزواج عن هدفى الأساسى فى الحياة وهو الأدب وعرضت على أمى الكثير من المشاريع للزواج التى كانت ترى أنها مناسبة ولكنى تزوجت بطريقة غريبة وفوجئت أمى بهذا الخبر الذى جاء فجأة .

* كيف ؟

– تزوجت فى عام ١٩٥٤ ، كان عمرى حوالى ٤٣ سنة ، وكان ذلك خلال توقفى عن كتابة الرواية بعد فترة من فترات اليأس الأدبى ، عندما بدأت أكتب سيناريو للسينما . وكنت أعانى من الفراغ ، وربما هذا مادفعنى إلى الزواج .

تعرفت على زوجتى عن طريق صديق لى التقيت معه مرة وكان بصحبته زوجته وشقيقة زوجته ، هذه الشقيقة هى التى أصبحت زوجتى .

* ألم يحدث ماكنت تخشاه وعطلك الزواج عن عملك الطويل فى عالم الأدب ؟

– لا ، على العكس ، فقد كانت أسرة زوجتى محدودة واستطاعت هى أن تستوعب حياتى وأفكارى وظروفى فحملت عنى تقريبا كل الواجبات الاجتماعية التى تبدد الوقت ، ولذلك لم يحدث ما كنت أخشاه بل شجعنى الزواج على الإنتاج والتركيز .

* والابنتان العزيزتان أم كلثوم وفاطمة ، ألم تحملا من موهبتك الأدبية شيئا ؟

- أم كلثوم كان لديها استعداد للفن التشكيلى ولكنها سرعان ما انصرفت عن هوايتها الوحيدة إلى الدراسة فى الجامعة الأمريكية ولم تدرس الفنون .

أما ابنتى فاطمة فلم تظهر عليها أعراض الفن ودرست السكرتارية فى الجامعة الأمريكية - وهما مختلفتان عنى لأنهما من جيل مختلف فأنا أحب الموسيقى الشرقية ، وهما تحبان الموسيقى الغربية ، لديهما اهتمام بالعالم ، وليس بالواقع المحلى ، وأعتقد أن كل جيل وله زمانه .

يوسف إدريس

تجربتى علمتنى أنه لا يجب على الإنسان أن يحلم بشكل مطلق بل عليه أن يتعامل مع الواقع حسب إمكانياته ، ومن الواقع يختار أحلامه . كانت لنا طموحات كبيرة جداً وأنا شخصياً كنت أتصور أن مصر عام ٦٠ ستكون جنة الله على الأرض وسوف لا يكون هناك فقر ، وسوف تسود العدالة . كانت كل هذه مجرد أحلام إلى درجة أننى أعددت نفسى للموت عام ٦٥ .

يوسف إدريس


يوسف إدريس

وصفه النقاد بالكاتب المتمرد أبداً وعندما قابلته ، كان أول سؤال تبادر إلى ذهنى : لماذا أنت ثائر دائماً ؟

فرد على السؤال ضاغطاً على كل كلمة : " لأن الكتابة عندى فعل ، رسالتها الحقيقية إحداث تغيير إلى الأفضل " ، سواء على مستوى الوطن ولذلك فالكتاب الذى أقرأه وأظل كما كنت قبل قراءته لا أحسبه كتاباً إنما الكتاب الحقيقى هو الذى يصبح الإنسان بعد قراءته مختلفاً عنه قبلها ، الكتاب الذى يشحن الإنسان بشحنة ما تدفعه إلى فعل ما .

هذا الرأى يلخص شخصيته .

* ألا توافق الكثيرين فى أن الصحف اقتطعت منك كثيراً مما كان يمكن أن تقدم فى مجال الإبداع الأدبى ؟

أنا لا أستطيع أن أعيش دون المساهمة فى التغيير الاجتماعى ، لا يمكننى أن أغمض عينى عن مشاكل بلدى وقضايا مجتمعى ووطنى . فالكتابة فى نظرى نوع من الكفاح ولكنه ليس كفاحاً مسلحاً هدفه التغيير بالقوة بل كفاح فكرى دائم ومعاناة مستمرة .

وأرى أنه لايستحق أن يولد من كتب لنفسه فقط . وأنا شخصيا أفضل أن يقول الكاتب رأيا ما ويخطىء أفضل من أن يصمت ويؤثر السلامة حتى لا يخطىء أو يُهاجم ، فالصمت جريمة لا تغتفر وإذا لم يكن للكاتب رسالة فعليه أن يبحث عن عمل آخر .

هناك رأى يقول إن ما تكتبه فى الأهرام كل إثنين يستوعب شحناتك ويفرغها فى مقال صحافى ، كان يمكن أن يتحول إلى قصة قصيرة أو مسرحية .

- يكفينى مكسباً أن هناك من غيروا حياتهم نتيجة لجملة فى المفكرة وأننى ساهمت فى تغيير مفاهيم كثيرة عندما التحمت بالقراء عبر رسائلهم الكثيرة للمفكرة .

ويكفينى أننى تعلمت من هؤلاء البسطاء أنه لا يجب على الإنسان أن يحلم أحلاما يوتوبية ، بل عليه أن يتعامل مع الواقع حسب إمكاناته ومن هذا الواقع يختار أحلامه .

* أنت دائما تسبح ضد التيار فهل حبك للمعارضة وتبنى وجهة النظر المغايرة لوجهة النظر السائدة نابع من تركيبتك الخاصة جداً ؟

- أذكر أن الكاتب الكبير" برنارد شو " قال ذات مرة : " جنونى أننى أرى الأشياء على حقيقتها بينما يراها الناس على غير حقيقتها ، فمن منا المجنون ياترى " وبالمثل يتهمنى الناس بالجنون وبالتهور أحيانا .

وهنا أعود إلى الفيلسوف الهولندى اسبينوزا الذى قال : ويل للزمن الذى لايشذ فيه إلا قليلون . ولا أخفى عليك أن الرغبة فى التغيير فى مجتمع نام مهمة صعبة بل شديدة الصعوبة حيث يشعر الكاتب دائما باليأس والإحباط فلا صدى لما يكتب ، ولا رد فعل سريع يتجاوب مع أفكاره وطموحاته . ومن هنا نجد معظم الكتاب الجادين ينعزلون شيئاً فشيئاً ، ثم يقال عنهم بعد ذلك أنهم يعيشون فى برج عاجى .

أنا أؤمن دائما أن دور المبدع والمفكر والفنان فى حياة مجتمعه هو دور تنويرى حضارى .

* فى حياتك اختيار صعب أو فلنقل إنه كان اختياراً حتمياً عندما اعتزلت الطب نهائياً وتفرغت للأدب والكتابة ، فهل تحدثنا عن تجربتك فى الكتابة ؟

- أولاً أحب أن أصوغ السؤال بشكل آخر : لماذا فكر الإنسان فى الكتابة منذ بدء التاريخ ولماذا قرر أن يمسك بآلة يحفر بها حروفا على الصخر ، ثم يخترع ورقاً وحبراً ليعبر بهما عن نفسه بدلاً من التعبير الشفهى بالكلام ؟

أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال بعد تفكير شغلنى طويلاً لم يكن الإنسان يكتب ليعبر عن نفسه فقط ، بل إنه كان حريصاً جداً على أن يسجل فى كتاب التاريخ البشرى كلمة تصلح البشرية ولهذا فالكتابة هنا "عِلم " عِلم مختلف ، كلام يصلح للبقاء ، عندما وعى الإنسان قدرته على الكتابة حدثت كارثة ، كَتب تلالاً وجبالاً من المخطوطات . الجاحظ كتب ٨٠ كتاباً ومات تحت تل كتبه ، بينما استخلصنا نحن أبرز إبداعاته فى البخلاء والحيوان فقط .

التراث العربى حافل بالكلام . وليس التراث العربى فقط ، فتقييم الرواية فى أوروبا كان شكلياً ، روايات ثقيلة الوزن ٥٠٠ صفحة أو يزيد . شاهدت أخيرا فيلماً سينمائياً بديعاً مأخوذاً عن رواية اسمها الوردة ، وعندما حاولت قراءة الرواية بعد مشاهدة الفيلم لم أستطع رغم روعة اللغة فهى مليئة بالتفاصيل غير المهمة التى تقتلنى ، كذلك حاولت قراءة رواية

" مئة عام من العولة " للكاتب الحائز على جائزة نوبل " غابرييل غارسيا ماركيز " قرأت منها ٢٠ صفحة فوجدت نفسى أنزلق نحو بطء الإيقاع ، سألت أصدقائى فاعترفوا بالشعور نفسه .

* تأثرت بأنطوان تشيخوف ، كيف كان ذلك ؟

– لم يكن تشيخوف مهماً فى القصة القصيرة فحسب بل كان مهماً فى تاريخ الكتابة ككل . أعطى الشعور اللحظى بعداً مكتوباً بمعنى أنك تستطيع أن تستعيده كلما قرأته ، فقد حول القصة الشفهية إلى فن مكتوب . لذلك فأنا أتعجب من محاولات الكتاب الذين يحاولون تفضيل الكم على الكيف ، وأندهش لعصر الثرثرة وأعتقد أن العصر القادم هو عصر الكيف فالكلمة التى لاتحوى حكمة لا قيمة لها .

* وماذا عن تجربتك الخاصة ؟

– أنا عندما نشرت من قصصى أقل مما لم ينشر ، أكتب القصة لأعثر على الموضوع فاذا ما عثرت عليه أعدت كتابتها لأحذف كل ما ليس لـه علاقة به فإذا لم يكن الكاتب حكيماً فكيف يعلم الناس الحكمة .

* ولكن كيف كان التحول من الطب إلى الأدب ؟

– قصتى مع الأدب بدأت منذ طفولتى ، كتبت الشعر فى مدينة دمياط التى عشت فيها حياتى تلميذاً صغيراً منغلقاً على نفسى ، وفشلت كشاعر فى كتابة أول وآخر ثلاثة أبيات من الشعر فى حياتى .

بعدها عشقت المسرح وسمح لى بمتابعة بعض العروض المسرحية فى الكواليس . ورغم إحباطى فى كتابة الشعر قررت أن أكتب رواية وطبعتها على دفتر إيصالات ثم وزعتها على الطلبة فبُهروا بها ، ثم حاولنا تقديمها مسرحياً وعملنا بروفات فى مسجد المدرسة فرفدنا الناظر وشكانى إلى أبى الذى قال لى : بتمثل فى المسجد ؟! وكانت واقعه لا أنساها بينى وبينه .

أما فى كلية الطب فقمت بنشاط صحافى داخل الكلية فى المجلة التى كنت أصدرها

تحت عنوان " طالب الطب بين المشرحة والمستشفى " وكان بيننا زميل هو الدكتور أحمد يسرى الذى كتب قصة أعجبتنى فكتبت أنشودة الغرباء وذلك قبل أن أكتب " أرخص ليالى " . كانت " أرخص ليالى " أول أعمالك المنشورة فكيف تنظر إليها أو تقيمها الآن ؟

أؤكد أننى نسيت مجموعة " أرخص ليالى " بعد كتابتها ، وهذه مشكلة لأننى لا أعيد قراءة ما كتبته مرة أخرى فلست ممن عندهم هذا الزهو الغريب بإبداعاتهم . إيمانى ضعيف بما أكتب وأقول ياليت الناس تغفر لى . وفى رأيى لابد أن لا يتمتع الكاتب أو المبدع بثقة زائدة فى نفسه لأن الثقة توقفه عند حد معين فلا يتطور ولا يتفاعل مع ما حوله . وأنا لا أنظر إلى الخلف ولكننى حريص على إجادة إنتاجى . أحتفل بينى وبين نفسى بقصة أو مقال فينتهى الأمر ببساطة ولا أعود إليها مرة أخرى .

* ما اللغة المناسبة للكتابة فى رأيك ؟

– اللغة يختلقها الشعب ومن يريد أن يتقن أى لغة عليه أن يسير فى الشارع ليتعلم لغة الناس وهى تصلح للكتابة مع كثير من الاقتباس والاستلهام فتصبح لغة راقية جداً ، لغة مستوحاة من أصل اللغة أى الناس .

* هل توقف العطاء عند جيل الرواد فى مجال الأدب والكتابه أم أنك ترى أقلاماً واعدة بين الأدباء الشبان ؟

– على الكُتاب الجدد أن يبحثوا عن الجديد وأعتقد أننا يجب أن نؤسس ورشاً للكتابة على غرار جامعة لوس أنجلوس التى أشرفت فيها على ورشة كتابة للشباب المبدعين فأفدتهم بخبرتى واستفدت بجديتهم ، فالكتابة علم نقل ما فى الأعمال ولو كان هلامياً . وعندنا كُتاب جُدد بعدد شعر الرأس وبينهم أقلام ممتازة .

أضعهم جميعا فى كفة ومحمد المخزنجى فى كفة وحده فالمخزنجى فنان حقيقى وحساس ، فى كتاباته لغة لم أقرأها عند أحد ، كل مواضيعه تصلح لبرواز يوضع فى أعظم مكان .

* كيف تعاملت كأديب مبدع مع السلطة بما تفرضه من رقابة أحيانا ؟

– مشكلة الحجر على إبداع الكاتب ورأيه ليست بسبب الدولة الآن ، ولكنها بسبب بعض

رؤساء التحرير النين يؤثرون نفاق السلطة بشكل فج وكريه فينصبون أنفسهم رقباء على المحررين . لم أواجه ذلك فى الأهرام لكنها ظاهرة موجودة فى صحف ومجلات أخرى . أما الحجر على الآخر فللأسف سببه التطرف . وقد دعا بعضهم إلى قتل كل صاحب رأى مضاد كتب عن النقاب ، فتعرضت للتهديد .

إن ظاهرة التطرف – بكل أسف – أفكار أريد بها إشاعة التخلف والبداوة الغبية لإفساد مصر من الداخل . تكتب كلمة بقلم فتُهدد بالرصاص .

* الكاتب دائما إنسان يخاصم الواقع رغبة فى التغيير إلى الأفضل وغالباً ما تتسع الهوة بين الواقع والحلم ، فكيف تعاملت مع هذه الهوة ؟

– تجربتى علمتنى أنه لا يجب على الإنسان أن يحلم بشكل مطلق بل عليه أن يتعامل مع الواقع حسب إمكانياته ، ومن الواقع يختار أحلامه . كانت لنا طموحات كبيرة جداً وأنا شخصياً كنت أتصور أن مصر عام ٦٠ ستكون جنة الله على الأرض وسوف لا يكون هناك فقر ، وسوف تسود العدالة . كانت كل هذه مجرد أحلام وردية إلى درجة أننى أعددت نفسى للموت عام ٦٥ .

ربما تؤجل خيبة الأمل المشروع وربما تدفعنا إلى الإصرار على تحقيقه ولابد أن يحدث هذا حتى نظل أحياء ، لقد مات كثيرون منا عندما خاب أملهم . تغيرت أحلامى وأصبحت أحلم بإدراك ما حولنا وأحلم أن ننتبه .

* أين المرأة فى حياة يوسف إدريس ؟

– أقدر المرأة جداً ولا أتعامل معها على أنها شئ هامشى . حتى بعض علاقاتى العابرة كانت تحدث بشكل عميق ومتفهم .

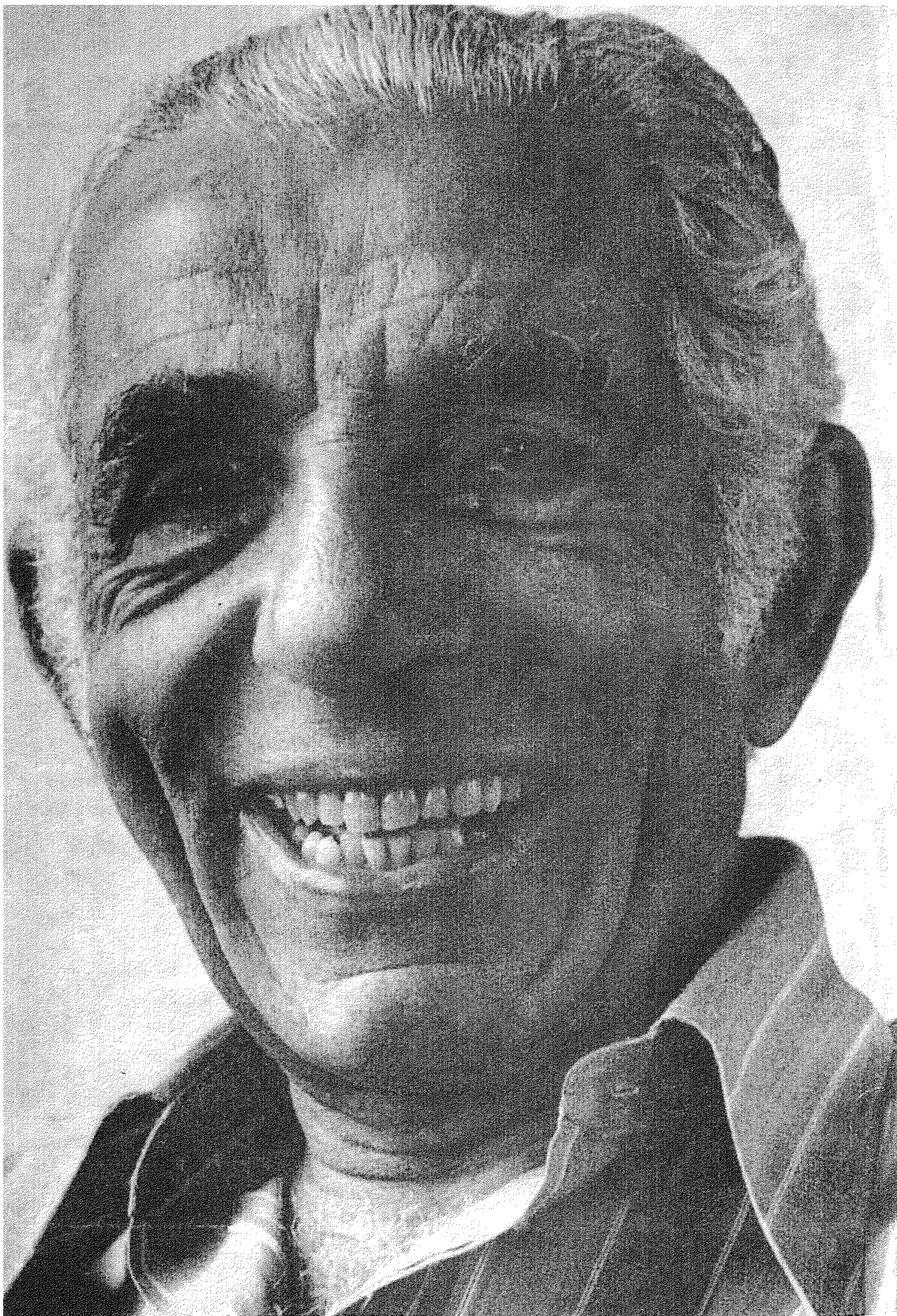
* ألا زلت تذكر الحب الأول ؟

– نعم مازلت أذكرها فهى بطلة رواية " البيضاء " كانت بنتاً يونانية حلمنا معاً بالسفر إلى أوروبا ، واكتشفت فى نهاية العلاقة أنها فتاة عادية جداً لم تكن تستدعى كل هذه الضجة ، لكنى فى الرواية حشوت الأحداث بمفاهيم ورموز ، وعندما اكتشفت أنها امرأة عادية صدمتنى الحقيقة .

جلال الحمامصى

" لماذا لاتعلن نتيجة تحقيق د . مصطفى أبو زيد المدعى العام الاشتراكى على الشعب ؟ لماذا لا أحاكم إذا كان التحقيق قد أثبت تورطى فى الإدلاء بمعلومات كاذبة تتعلق بشخصية هامة ؟ إذا كنت بريئاً فأعلنوا هذا وإذا كنت مداناً .. فلتحاكمونى .. " .

جلال الحمامصى



الفصل الأول

الرمـوز .. لاتمـوت

فى كل يوم يولد بشر .. وفى كل يوم يموت بشر .. الكل يأتى إلى الدنيا .. والكل يرحل عنها .. وتبقى من الإنسان .. ذكرى !

وبقدر ما احتوى كتاب الرحلة التى نقطع مسافتها بين الحياة والموت من صفحات بيضاء بقدر ماتتحول الذكرى إلى جوهر ثمين ، تزداد قيمته ويرتفع قدره كلما مرت السنون .

هكذا كانت ذكرى أستاذى الجليل : جلال الدين الحمامصى ، وهكذا كان كتاب رحلته ، تحمل صفحاته من البداية إلى النهاية لوناً واحداً .. هو اللون الأبيض ..

فلم يكن " الأستاذ " يميل إلى اللون الرمادى عندما كتب أروع صفحات هذه الرحلة .. بمواقف صريحة حازمة ، لا تقبل التأرجح بين الأسود والأبيض ، وتأتى الحلول المريحة السهلة ، الحلول الوسط ، عند اتخاذه لموقف يعبر عن مبدأ لا يتزحزح داخله أو عندما يؤمن بعدالة قضية لابد أن يتبناها ويقف إلى جانب المظلوم فيها .

وكم كانت قسوة المواقف الصعبة التى عاشها بسبب تمسكه بهذا اللون ، اللون الأبيض وكم نكأت جروحه وعمقت عندما أتته الطعنات والصدمات من أقرب تلاميذه إليه من محبى اللون الأسود .

هذا هو جلال الدين الحمامصى ، وهذه هى ذكراه ..

مثل كل جوهر ثمين ، تزداد قيمته مع الأيام والسنين ..

ومثل كل عطر أصيل ، تزكو رائحته ، وتزداد عبقاً مع الزمن ..

وبانطواء صفحات الأيام تبقى ذكراه جميلة ، نظيفة ، سامية ، رمزاً للمبادئ : الأمانة والنزاهة والصدق .

وهذا العمل الذى أضعه اليوم بين يدى القراء يحمل فى صفحاته ذكريات ١٣ سنة هى كل السنوات التى عرفته فيها ، منذ كنت طالبة بالسنة الأولى بكلية الإعلام جامعة القاهرة وكان هو أستاذ مادة " الصحافة والنشر " بالكلية وحتى آخر يوم فى حياته

يوم ٢٠ يناير ١٩٨٨ .

أردت بهذا العمل ، المتواضع جداً ، أن أروى ماعايشته بنفسى من مواقف كنت قريبة فيها من أستاذى : جلال الدين الحمامصى وكان مارأيته وما سمعته وما أحسسته خلال هذه المواقف العصيبة أقرب مايكون إلى ملحمة خالدة بطلها فارس لايزال يتعامل بأخلاق نبلاء القرون الوسطى ، فى زمن تداخلت فيه الخطوط بين الصواب والخطأ وذابت الحدود بين الأبيض والأسود .

وكنت واحدة من تلاميذه العديدين .. الذين بهرتهم فيه هذه القوة الخارقة التى تفوق تحمل البشر على التحدى والصمود فى معارك غير متكافئة ، فى سبيل تحقيق مبادئه التى تتجه إلى المثالية ولا تقبل عنها بديلاً ..

رأيته وعاشرت معارك الفترة الأخيرة من عمره . كان هذا أعظم مامن الله علىَّ به فقد تأكدت من وجود الحق والأمانة والصدق .. وجدت كل هذا مجسداً مجتمعاً فى رمز هو " جلال الدين الحمامصى " .

تأملته وهو يواجه وحده – متسلحاً بسلاح واحد هو مبادئه – أعتى الجبابرة وأقوى الأسلحة ، وكيف قاوم به وصمد واستمر رمزاً .

ورأيته يفتح ملفات تتعلق بانحرافات كبار المسئولين فتتفتح فى وجهه طاقة جهنم ، عقاباً له على جرأته فى محاسبة من تصوروا أنهم فوق المحاسبة واعتقدوا أن الحياة باقية ، وهم مخلدون فيها قادرون على طمس الحقيقة أو وأدها .

وشاهدته فارساً نبيلاً فى معاركه لا يشهر سيفه فى وجه الانحراف الصغير الذى غالباً مايكون من ضحايا المنحرفين الكبار فلم يحارب قلمه إلا هؤلاء الذين كانوا فوق جيادهم فى عز جاههم وسلطانهم .

والكتاب يروى تجربة ذاتية شديدة البساطة والتلقائية تحكى ذكريات حفرت فى ذاكرتى لمواقف مع " الأستاذ " انفعلت فيها معه وهالنى ما احتمله خلالها وما قاومه . وأهم هذه المواقف كان إصدار كتاب " حوار وراء الأسوار " الذى فتح فيه ملف قضية نزاهة الحكم ، كما كان يطلق عليها . وجاءت فى كتابه بعض الوقائع التى دعمها بمستندات حول تحويل مبلغ ١٠ ملايين دولار باسم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر إلى أحد بنوك هولندا ، وكان هذا

الشيك موجهاً من الملك سعود بن عبد العزيز إلى المجهود الحربى . وواقعة أخرى متعلقة باستغلال السيد أشرف مروان زوج ابنة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر لنفوذه فى شراء قطعة أرض من أراضى الإصلاح الزراعى باسم زوجته .

رأيت كيف قامت الدنيا عليه ولم تقعد وكيف صمد فى وجه الاتهامات القاسية التى انهالت عليه ونالت من أغلى شئ عاش يحرص عليه طول حياته وهو أمانته الصحفية ، وكيف طلب بنفسه التحقيق معه فى كل الوقائع التى جاءت بكتابه وإعلان نتيجة هذا التحقيق على الناس . فقد عاش فترة طويلة يتألم ويعانى من عدم إعلان ماتوصل إليه التحقيق من نتائج تبرئ ذمته الصحفية .

كان ينتظر بفارغ الصبر أن يعرف الناس : قراؤه وتلاميذه وكل من أحبوه ووثقوا به أنه لم يخن يوماً أمانة الكلمة ولا القلم الذى حمله .

وكان يمزق قلبه أن يرى الجرائد وأقلام كبار الكتاب من تلاميذه تكتب فى هذا الموضوع لتوهم القراء بأن نتيجة التحقيق قد أدانته وتوصلت إلى أنه كذب وافترى وادعى .

وكان يصرخ فى مقالاته موجهاً سؤالاً منطقياً : " لماذا لاتعلن نتيجة تحقيق د . مصطفى أبو زيد المدعى العام الاشتراكى على الشعب ؟ لماذا لا أحاكم إذا كان التحقيق قد أثبت تورطى فى الإدلاء بمعلومات كاذبة تتعلق بشخصية هامة ؟ إذا كنت بريئاً فأعلنوا هذا وإذا كنت مداناً .. فلتحاكمونى .. " .

ولكن – وبكل أسف – بقى الاتهام معلقاً لسنوات طويلة عانى فيها " الأستاذ " هذه المرارة وحده بصبر وإيمان .

وكان مما يحز فى نفسه أنه يعرف ماجاء بالتقرير الذى رفعه د . مصطفى أبو زيد " المدعى الاشتراكى " السابق للرئيس الراحل أنور السادات فقد قرأه د . مصطفى أبو زيد فى التليفون وعندما طلب منه الاحتفاظ بصورة لديه من التقرير لم يوافق د . مصطفى أبو زيد وقال له : إن هذه الأوراق يجب أن تودع فى مجلس الشعب لأنها ملك الشعب ولا يستطيع رجل من رجال الدولة أن يتصرف فى مثل هذه المستندات الهامة إلا من هذا المنطلق .

واحترم الأستاذ كلام المدعى الاشتراكى . وظلت سعادته بما سمع من التقرير ممزوجة بحزن وأسى لم يستطع أن يمنع نفسه من الإحساس بهما لأنه كان كالبرئ الذى يرى شاهد الإثبات الوحيد على براءته مقيداً بالأغلال ممنوعاً من أن ينطق .. والحقيقة حبيسة الأسوار لا أمل فى إعلانها على الناس !!

وموقف آخر عاشه " الأستاذ " وواجهه بنفس الصلابة والصمود والثبات على المبدأ . عندما رشح نفسه لمنصب النقيب فى انتخابات نقابة الصحفيين احتشدت قوى السلطة والنفوذ ممثلة فى رؤساء مجالس إدارات الصحف القومية بكل إمكانياتها وقوتها ونفوذها من أجل هدف واحد هو" إسقاط " جلال الدين الحمامصى .

عشت معه هذه الأيام العصيبة التى واجه فيها أشد مايلاقى إنسان : جحود البشر ونكران الجميل من تلاميذ وقف إلى جانبهم كثيراً عندما كانوا لايزالون يتحسسون طريقهم فى دروب الصحافة ، لقد ضحى معهم ومن أجلهم تضامناً معهم وتدعيماً لموقفهم .

وفجأة يكتشف " الأب " أنه لم يعرف كيف يربى أبناءه .

كانت صدمته كبيرة فى هؤلاء وألمه أكبر . لذلك كان يتخلص من هذا كله ويلجأ إلى واحته الصغيرة التى لايزال هواؤها نقياً .. ويلوذ بأبنائه من الشباب ، الجيل الذى حاول أن يغرس فيه مبادئه وقيمه ، حتى لايتحولوا إلى ماتحول إليه أبناؤه الكبار .

وتمضى المسيرة ، المسيرة البيضاء لإنسان يندر أن يجود الزمان بمثله ، ويتبادل " الأستاذ " مع تلاميذه من أبنائه الكبار مواقع المسئولية فيصبح مرؤساً لهم بعد أن كان رئيساً وأباً ومعلماً ، ويرى الأب " الأستاذ " مالم يتوقع أن يراه على أيدى هؤلاء التلاميذ من الأبناء الكبار .

ووسط كل هذه السحب والضباب الذى كاد يحجب الرؤية ، يظهر فى الأفق أمل جديد يتعلق به " الأستاذ " أمل يداعب حلمه الذى ظل يلازمه طوال حياته فى صحافة مستقلة عن نفوذ السلطة أو سطوة رأس المال . عندما عُرِض عليه إنشاء جريدة عربية دولية تصدر فى " باريس " وتوزع فى كل البلاد العربية والأوروبية اشترط الأستاذ لدراسة المشروع أن يضمن الممول له مبدأ الاستقلال التام عن أية حكومة عربية أو مصالح خاصة ، كما اشترط

أن تطبـع فــى القاهرة فى نفس الوقت الذى تطبع فيه فى باريس وأن يكون نبضها مصرياً خالصاً .

وكما اجتمع أعداء حرية الصحافة الخائفون من استقلالها وموضوعيتها وحيدتها ضد جلال الدين الحمامصى فى كل مواقفه دفاعاً عن هذه الحرية والاستقلالية والموضوعية والصدق مع القراء اجتمعوا ليجهزوا على هذا الأمل الوليد فى مهده .

ولم يستسلم " الأستاذ " ، كان " الصمود " شعاره الذى لم يتخل عنه يوماً .. فقد كان يريد أن يعطى مثلاً للجيل الجديد ، الجيل الذى كان يرى فيه المخرج والأمل الوحيد لصناعة صحافة جديدة تبحث عن مشاكل الناس وتعيش معهم آلامهم وطموحاتهم بعد أن تحولت الصحافة إلى البحث عن مصالح أخرى هى قطعاً ليست مصالح الناس البسطاء .

ومضى فــى كتاباتــه حتــى آخـر يـوم فــى حياته يشهر قلمه - سيفه - فى وجه الانحراف فكتب يهاجم الهاربين بأموال الشعب . ومنها حملته التى شنها ضد (هدى عبد المنعم) صاحبة شركة هيديكو التى هربت بأموال الكادحين التى تبلغ الملايين لتنعم بها فى أوروبا وتترك هؤلاء يلطمون الخدود ويذرفون الدموع على أموالهم وشقاء أعمارهم . كذلك كانت حملته الشهيرة لكشف انحرافات رئيس مجلس إدارة البنك العربى الأفريقى الذى ظل يكتب فيها على مدى أربعين يوماً متصلة . ونجحت حملته نجاحاً باهراً وانتهت بإبعاد إبراهيم الإبراهيم من منصبه . ثم كانت حملته لتسديد ديون مصر التى كان يهدف منها إعادة الانتماء لمصر وحبها والتضحية فى سبيلها ، تلك المعانى التى أصبح الشباب يفتقدها مع تفشى الانحرافات ونجاة هؤلاء المنحرفين من العقاب ووقوع الضحايا من الشرفاء بين مخالب الانحراف .

* * * * *

إن حياة جلال الحمامصى سلسلة من المواقف بدأت منذ شبابه المبكر ، بدأت عندما اشترك فى أكبر عمل وطنى فى ذلك الوقت عام ١٩٤٣ ، عندما اشترك مع مكرم عبيد فى إصدار (الكتاب الأسود) الذى تضمن فضائح حزب الوفد الحاكم ورفعها إلى الملك فاروق ، فى نفس الوقت الذى يتم فيه توزيعها على الشعب فى كل المحافظات فى ساعة واحدة .

واعتقل جلال الحمامصى فى معتقل الزيتون لمدة ١٨ شهراً لهذا السبب .

وفى عام ١٩٤٦ أصدر مجلة " الأسبوع " ولكنه قرر إغلاقها بعد ٧ أشهر فقط لأنه كان يملكها ، وعندما عرض عليه رئيس الوزراء محمود فهمى باشا عوناً حكومياً فى صورة مصروفات سرية عندما تعرضت المجلة لأزمة مالية فضل إغلاقها على أن يتلقى دعماً حكومياً يؤثر فى استقلالها .

ثم أنشأ جريدة " الزمان " عام ١٩٤٧ عندما طلب منه ادجار جلاد - صاحب جريدة " الچورنال ديچيبت " وهى جريدة كانت تصدر فى مصر باللغة الفرنسية - أن يرأس تحرير صحيفة يومية مسائية جديدة تصدر باللغة العربية ولم يوافق " الأستاذ " على العرض إلا بعد أن قبل ادجار جلاد شرطه الأساسى والأول وهو أن تكون الصحيفة مستقلة تماماً عن كل الأحزاب .

النجاح الكبير الذى حققته جريدة " الزمان " التى لاقت رواجاً كبيراً بين القراء كان الفضل فيه لجهد " الأستاذ " وحرصه على كسب ثقة قرائه باستمرار ، ومعاركه المستمرة مع صاحبها ادجار جلاد كلما حاول الاقتراب من سياستها التحريرية المستقلة - ورغم كل هذا النجاح الذى كان ثمرة ثلاث سنوات من العرق والجهد لإنجاح الجريدة قرر جلال الحمامصى الاستقالة من الجريدة عندما جاء الوفد إلى الحكم .

وضحى " جلال الحمامصى " بالاستمتاع بنجاحه وتألقه الصحفى فى جريدة " الزمان " فاستقال منها بعد ثلاث سنوات من العمل والنجاح حفاظاً على مبدئه .

وتمضى الأيام وينضم إلى العمل مع صديقىْ عمره مصطفى وعلى أمين فى جريدتهما " أخبار اليوم " عام ١٩٥٠ .. ويشارك معهما فى تأسيس جريدتهما اليومية الجديدة " الأخبار " ويصبح أحد رؤساء تحريرها .

ثم يقبل أن يضحى بعمله فى جريدة " الأخبار " كرئيس للتحرير ويعمل رئيساً لتحرير جريدة الثورة (الجمهورية) عام ١٩٥٤ بعد أن اعتذر عن قبولها كل زملائه وخاف أن يغضب الرئيس جمال عبد الناصر عليهم فقرر أن يكون هو كبش الفداء ورفض أن يوضع اسمه كرئيس للتحرير على " ترويسة " الجريدة .

وفى عام ١٩٥٦ كلفه الرئيس جمال عبد الناصر بإنشاء أول وكالة أنباء مصرية فى الشرق الأوسط . وفعلاً أنشأ جلال الحمامصى وكالة أنباء الشرق الأوسط .. ومرة أخرى بطلب من

الرئيس عبد الناصر .. توافر شرطه الوحيد فى كل عمل شارك فى تأسيسه أو إنشائه أو العمل به : الاستقلالية .. استقلالية الوكالة تماماً كما هو حادث بالنسبة لوكالات الأنباء الغربية والعالمية لذلك طلب أن يكون رأس مال الوكالة مدفوعاً من أصحاب الصحف الذين سوف يستفيدون بخدمات الوكالة الصحفية . وبدأ العمل بعد أن وافق الرئيس على كل ماطلبه ، فتكونت الوكالة من رؤوس أموال أصحاب الصحف مجتمعين . وكان أول نبأ طيرته إلى بلاد العالم هو تأميم قناة السويس .

ولم يدم هذا الوفاق كثيراً فسرعان ماتدخل الرئيس فيما تنقله الوكالة من أخبار ، وتهدد مبدأ الاستقلالية الذى وضعه " الأستاذ " شرطاً لعمله بعد أن حققت الوكالة انتصاراً صحفياً مصرياً وقومياً واستطاعت أن تقف على قدم المساواة مع الوكالات الأجنبية العالمية . وانتُزعت ابنته منه بعد أن تم تأميمها وإنهاء شركة أصحاب الصحف فى رأس مالها لتصبح الوكالة حكومية .

وترك " الأستاذ " ثمرة عمله لغيره مرة أخرى بعد نضجها واكتمالها وعاد لجريدة " الأخبار " عام ١٩٥٩ ، واستمر يكتب مايراه مدافعاً عن الحق والصالح الوطنى حتى فوجئ بقرار فصله ، وكان هو القرار الوحيد الذى صدر بفصل صحفى فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر ، أعلنه الرئيس وهو على ظهر الباخرة التى كانت تقله إلى المغرب فى ٣١ ديسمبر عام ١٩٦٠ عندما اتصل بكمال رفعت وقال له : ابعث خطاب فصل لجلال الحمامصى ..

وأمضى " الأستاذ " فى سجنه الكبير - سجن الحرية الذى اعتقل فيه رأيه وقلمه - أربعة عشر عاماً كاملة كانت أقسى سنوات حياته عذاباً وألماً ، فالقلم بالنسبة للكاتب الصحفى هو الرئة التى يتنفس بها والشئ الذى يجد معه لحياته معنى ولوجوده قيمة .

وحبس " الأستاذ " آلامه بين ضلوعه ومضى فى طريقه يبحث عن مكان آخر يعطى فيه فمثله يعيش بالعطاء ولا تتوقف حياته إلا إذا توقف عطاؤه . ذهب يبنى جيلاً جديداً من الشباب فأنشأ قسماً للصحافة بالجامعة الأمريكية حاول أن يبث فيهم حب الحق والدفاع عن المبدأ مهما كلفهم هذا . وبعد ذلك بسنوات أنشأ نفس القسم بكلية الإعلام جامعة القاهرة وأخرج جيلاً من الصحفيين الناجحين الذين يمثلون عصب العمل الصحفى فى معظم الجرائد والمجلات المصرية والعربية .

وفى مارس ١٩٦٨ عين مديراً لقسم الدراسات الصحفية بجريدة الأهرام . وكان يعد كل يوم تقييماً هاماً لكل مانشر بالجريدة ، ولا تزال هذه التقارير محفوظة فى أرشيف (الأهرام) تعبر عن أستاذية صحفى عشق المهنة وتفنن فى الارتقاء والارتفاع بها .

وعاد جلال الحمامصى عام ١٩٧٤ إلى الكتابة بعد أن حرم من التنفس طول ١٤ سنة ، عاد ليكتب أول مقالاته " ما أحلى الرجوع إليها " وكان يقصد إلى الكتابة .. ومضى فى نفس الطريق على نفس الدرب الذى رسمه لنفسه من البداية إلى النهاية محارباً ، فارساً شهر قلمه فى معركة نزاهة الحكم واستقلالية الصحافة .. حلمه الذى لم يتحقق .

الفصل الثانى

معارك العامين الأخيرين

وأقلب فى صفحات أخرى فى مقالات الحمامصى خلال العامين الأخيرين من حياته .. وأتوقف عند حملته النبيلة التى خاضها أيضاً بحب وصدق لتراب هذا البلد .. ولكن عقبات كثيرة واجهته .. فى سبيل دعوته القومية العظيمة إلى تحقيق هدفها الأساسى .. وهو تحريك الانتماء الكامن عند الشعب المصرى لبلده .. وكانت الوسيلة التى رآها هى " المساهمة فى تسديد ديون مصر " .

وفى ١٩٨٧/١/٢٤ كتب الحمامصى عن اللقاء الذى تم بين الرئيس حسنى مبارك وبين الكُتّاب والصحفيين فى " أخبار اليوم " والذى سأله الرئيس مبارك خلاله : " لماذا توقفت عن متابعة دعوتك لسداد ديون مصر ؟ " قال الحمامصى : إن الدعوى كانت قائمة على المشاركة الاختيارية .. إلا أن الحكومة شاءت تحويلها إلى إلزام مفروض على الشعب .. على طبقة الموظفين والعاملين فى الأجهزة التابعة لها .. مما أدى إلى سخط عام وخروج الدعوة عن مفهومها الأصلى ..

وقال الحمامصى فى مقاله : واستمع الرئيس إلى هذه الكلمات القليلة .. ولست أدعى القول أنه وافق عليها أو أقرها إلا أن ردّه أعطى إلى الانطباع باقتناعه بما قلت .. فقد بادر إلى القول : إن الدعوة كانت أصلاً تحريكا للانتماء للوطن لخدمة قضية قومية عاجلة .. وفى ظروف قاسية .. وإذا كانت قد توقفت لسبب أو لآخر فإنها يجب أن تعود .

ويكمل الحمامصى الحديث عن دعوته فى مقالة بتاريخ ١/٢٨ تحت عنوان " الرجوع الشاق " - أى الرجوع إلى الدعوة بعد أن كان قد توقف لفترة ينتظر تذليل المعوقات الكبيرة أمامها ..

كتب يقول " إن النجاح فى إزالة آثار العدوان الأخير والعودة إلى مساهمة الشعب فى سداد جانب من ديون مصر الخارجية .. يحتاج إلى حوار وجهد ووقت ..

كان المعارضون - ومازالوا - أكثر من المؤيدين .. وكنا من البداية نواجه بحائط صد شعبى عنيف ، لا تهرباً من المشاركة فى عمل قومى تفرضه الظروف الصعبة التى نواجهها .. وإنما لأنهم كانوا يريدون البدء بمحاسبة الذين تسببوا فى تراكم هذه الديون ومساءلتهم عن أوجه إنفاقها .. أين راحت ؟ ولماذا لانحس بنتائج صرفها ؟ كانوا يطالبون كذلك بأن تبدأ الحكومة بنفسها فتكون القدوة .. فلا مزيد من الإسراف والتبذير فى أموال الدولة ولا اندفاع

فـي التـمسـك بالمظاهر الكاذبة .. أو بمـعنى آخـر أراد الشـعب أن تصلح الحكومـة من أوضاعها .. قبل الدعوة إلى المشاركة فى رفع كاهل الديون عن أكتافها ..

ورغم هذه الموجه المعارضة .. فقد كانت هناك قلة سارعت إلى المشاركة عن طيب خاطر على أساس أن تأتى خطوات المحاسبة فيما بعد .. بل إن الكثيرين من هؤلاء هم الذين أعطوا شمعة الأمل .. مما سمح لنا بالانتقال إلى التفكير والإعلان عن تكوين لجنة شعبية تقوم على تنظيم مسيرة الدعوة ورسم خطوات عملها بعيداً عن التدخل الحكومى ..

ورغم أن هذه اللجنة لم تجتمع ولم تبدأ فى مباشرة عملها ولم تعلن عن افتتاح باب المشاركة إلا أن هذه الأموال تدفقت على خزانة أخبار اليوم بمبالغ كبيرة أحياناً .. بسيطة أحياناً أخرى .. ومازالت رصيداً صالحاً ناطقا بإمكانية فتح أبواب الأمل ..

إنه جلال الحمامصى .. الذى كتب عن المرأة الحديدية فى حملته الشهيرة التى كشف فيها انحرافات شركة هيديكو .. والتى واصل الكتابة فيها بعد أن هربت هدى عبد المنعم من مصر بعد إصدار الحكم القضائى بالقبض عليها ومصادرة ممتلكاتها .. وذلك فى حملته الأخيرة التى كتبها بعنوان " من هرَّب الست ؟ " .

واستمر جلال الحمامصى حتى آخر يوم فى حياته يخوض المعركة تلو المعركة بأسلحته الطبيعية .. الفطرية .. التلقائية .. وهى .. الصدق .. الأمانة .. الشرف .. الدقة فى كل كلمة يكتبها .. وكأنه يضعها فى ميزان من ذهب ..

وأسدل الستار على آخر مشهد من مشاهد الرحلة .. وفى موكب مهيب ودعت مصر والصحافة المصرية جلال الدين الحمامصى أحد عمالقة الصحافة الرواد بعد ٧٥ عاماً من العطاء والإخلاص والعمل فى رحلة دامت لأكثر من ستين عاماً فى بلاط صاحبة الجلالة ..

وفى السرادق الكبير المقام أمام جامع عمر مكرم .. احتشد الآلاف من رجال الصحافة والإعلام وكبار السياسيين ورجال الدولة والآلاف من قراء الأستاذ الكبير من خريجى وخريجات كلية الإعلام الذين تتلمذوا على يديه ويعملون فى مختلف المؤسسات الصحفية ووسائل الإعلام .

وحضر الجنازة المهيبة مندوب الرئيس حسنى مبارك اللواء محمد على الجمال

و د . عاطف صدقى رئيس الوزراء و د. أسامة البـاز مديـر مكتب الرئيس للشئون السياسية وعدد كبير من الوزراء .

حضر الجنازة المهيبة أيضاً كل من رؤساء الأحزاب السياسية فؤاد سراج الدين رئيس حزب الوفد الجديد والمهندس إبراهيم شكرى رئيس حزب العمل الاشتراكى ومصطفى كامل مراد رئيس حزب الأحرار .

وتقـدم الجنـازة صديق عمره الكاتب الصحفى مصطفى أمين كما حضرها الكاتب الكبير أديب مصر نجيب محفوظ و د . يوسف إدريس وإحسان عبد القدوس ولفيف كبير من الكتاب والصحفيين والإعلاميين .

تلقى العزاء المهندس كامل جلال الدين الحمامصى الابن الأكبر للفقيد و د . عزيز مدكور والمهندس مجدى السيد صهر الفقيد و د . أحمس الحمامصى شقيق الفقيد .

وكان ميدان التحرير والمنطقة المحيطة بجامع عمر مكرم قد شهدت منذ الصباح الباكر لهذا اليوم – يوم ٢١ يناير ١٩٨٨ – تجمع أعداد هائلة من المواطنين .. وبدأت مراسم الجنازة بتلاوة القرآن الكريم داخل السرادق الذى لم يستوعب – رغم ضخامته – الأعداد الهائلة التى حرصت على توديع " الأستاذ " إلى مثواه الأخير ..

أحمد بهاء الدين

لقد نشأت ابناً لموظف صغير أيام عز صغار الموظفين . ولكنى نشأت شديد الحساسية لمشكلة الفقر والحرمان الإنسانى . قبل أن أقرأ كتابا واحدا فى الموضوع .. ومع الزمن صار أحد ملامح تفكيرى الوقوف مع قضايا الفقراء فى بلد أغلبيته من أهل الفقر . وتعلمت وما زلت أرى أن كل الصراعات الإنسانية تبدأ من لقمة العيش وهذا جعلنى أؤثر الفكر الاشتراكى .

أحمد بهاء الدين



أحمد بهاء الدين.

تأثـرت بألــف مخلـوق
وكذا ألف نظرية وكتاب

فى كل صباح أمد يدى إلى جريدة " الأهرام " .. أجد نفسى وبحركة لا إرادية أقلبها لأطالع الصفحة الأخيرة . وتتحرك عيناى فى اتجاه العمود الأعلى إلى يمين الصفحة .. ثم أجذب نظرى بسرعة قبل أن تتسلل إلىّ مشاعر الأسى والافتقاد الشديد لقلم عزيز وغال .. هو قلم الأستاذ أحمد بهاء الدين الذى غاب عن قراء مصر والوطن العربى قبل سنوات قليلة .

لم يختطفه الموت .. بل المرض الذى لا يزال يصارعه فى معركة أجبرت الكاتب القدير – لأول مرة – على الاستسلام والسكون القاتل .

لا أزال أبحث عن " يوميات " أحمد بهاء الدين .. وأتشوق إلى قراءة سطوره القليلة الثمينة التى كان يزودنا بها صباح كل يوم .

نعم .. لا أزال .. فقليلون هم الكتاب الذين استطاعوا أن يجعلوا لهم قراء " مدمنين " ، نعم قليلون جداً .. ومنهم أحمد بهاء الدين الذي جعلنا ندمن قراءة عموده اليومى .. ونشعر بأن شيئا داخلنا غير مضبوط إذا مر يوم لم نقرأ له .. تماماً كما يشعر المدمن عندما يختفى المخدر ويبحث عنه فى كل مكان .. ولا يهدأ إلا عندما يأخذ جرعته .

إنه أحمد بهاء الدين . . الكاتب الصحفى صاحب الأسلوب السهل الممتنع .. يصول بك ويجول فى أعقد الموضوعات وأبسطها . يفهمه المثقف رفيع المستوى .وأنصاف المتعلمين فى آن معاً .

أحمد بهاء الدين الذى احترم قراءه وقرأ فى كل الفروع من السياسة إلى الفن ومن العلم والتكنولوجيا إلىّ الأدب والشعر والفن التشكيلى .. إنه الكاتب القارئ .. أو القارىء الكاتب الذى قدس قيمة الثقافة فى حياة الكاتب فتميز وتألق .. وأثرى القارئ فى كل موضوع تعرض له قلمه .

وفى الفصول القادمة .. سنعيش رحلة طويلة نقطع فيها الطريق إلى عقل وقلب الكاتب الذى اختفى عنا الآن .. ولكن قلمه لن يموت .. وسطوره سوف تبقى الآن .. وغدا .. وبعد غد ..

قلت له :

* من أنت ؟

- أنا قارئ .. قرأت كثيراً ، وأتمنى لو استطعت أن أقدم كل ما قرأته ، لكل من يقرأون بإخلاص وأمانة .

* من الصحفي الذى تأثرت به ؟

- ليس هناك شخص معين ، فأنا لم أتأثر بالأشخاص ، أو بمدرسة معينة ، ولكنى تأثرت بالمجهودات ، قرأت لكل الصحفيين .. فى صغرى كنت أقرأ الجرائد قراءة دراسة لا قراءة تسلية ، وكدت أتابع كل ما يكتب فى الصحف والمجلات ، كنت أذهب إلى " دار الكتب " لأطلع على الجرائد والصحف القديمة ، قرأت مثلاً " اللواء " و " المؤيد " ، "والبلاغ " القديم و " السياسة " القديمة ، " والتنكيت والتبكيت " ..

وكان يعجبنى كتاب كثيرون لأسباب مختلفة .. ولكنى كنت أعجب أكثر بما يكتبه الدكتور محمود عزمى . كان أول من أدخل المقال الصحفى المثقف فى صحفنا والتعليق السياسى المثقف . وكان أول مصرى بعد الحرب العالمية كتب مقالات عن التحولات الجديدة فى الأمم المتحدة .. وأول كاتب كتب عن الكتلة الأفريقية الآسيوية .. وأول كاتب كتب عن تأميم البنوك فى فرنسا .. فى عهد كانت المجهودات الصحفية والتعليقات معلقة بنشاط الأشخاص الموجودين ، لا بنشاط التيارات الخارجية .. وأنا مازلت أعتقد أنه من الكتاب العالميين فى أسلوبه وعمق ثقافته .

* من أنت ؟ البعض يعتبرك ماركسياً والبعض يعتبرك ليبرالياً والبعض يعتبرك ناصرياً .. فماذا تريد أن تقول للناس فى كل ما تكتب ؟

ضحك وقال :

- أنا لست شيئاً من هذا .. إننى أحسد الذين لديهم القدرة على الركون إلى أول " فكر " يمر بهم ويطمئنون إليه طوال حياتهم ، أحسدهم على هذه الراحة النفسية والكسل العقلى . أنا لم أتأثر بمخلوق فى حياتى ولكنى تأثرت بألف مخلوق وبكذا ألف نظرية وكتاب . ولقد اتهمت أحيانا بالشيوعية ودهش الناس حين خضت حملة ضدهم فى الستينيات بعنوان " دراويش الماركسية " واتهمت بأننى بعثى وأجرى عبد الناصر شخصياً تحقيقاً عن مدى صحة أننى أؤسس فرعاً سرياً لحزب البعث فى مصر ولكننى مع الأسف غير قابل بالطبيعة لأن أنضم إلى تنظيم ولا تقيدنى نظرية .. أنا فردى النزعة فى تفكيرى .

لقد نشأت ابناً لموظف صغير أيام عز صغار الموظفين . ولكنى نشأت شديد الحساسية لمشكلة الفقر والحرمان الإنسانى . قبل أن أقرأ كتابا واحدا فى الموضوع .. ومع الزمن صار أحد ملامح تفكيرى الوقوف مع قضايا الفقراء فى بلد أغلبيته من أهل الفقر . وتعلمت وما زلت أرى أن كل الصراعات الإنسانية تبدأ من لقمة العيش وهذا جعلنى أؤثر الفكر الاشتراكى ولكن طبيعتى المعتدلة - والاعتدال أيضا ليس ميزة دائما - وكراهيتى للعنف جعلتنى أرى أن مزج الاشتراكية بالديمقراطية شرط أساسى لوجود كليهما على حد سواء ولكنى تأثرت فى هذا بكتابات " نهرو " فى سنة معينة أكثر من كتابات أى شخص آخر فى هذا المجال . وأنا أعتبر أن أكبر المؤثرات فى حياتى " مصريتى " لأن الشعب المصرى شعب مؤمن . وهو أكثر الشعوب تديناً ولكنه غير متعصب وهكذا أحببت التدين وكرهت التعصب واهتمامى بالاكتشافات العقلية - نظرية وعلمية - هام لأن التقدم والتطور سنة الحياة . فأنا مسلم ديمقراطى اشتراكى أؤمن بضرورة متابعة النظر فى كل الأمور والحكم عليها فى كل حالة بموضوعية إلى أقصى درجة يطيقها الإنسان ومفتاح هذا كله العقل واحترام دوره فى أوسع الحدود التى أتاح له الله أن يتحرك فيها . وبدون العقل لا قيمة للإنسان ولاقيمة حتى لإيمانه ذاته .

* ماهى نقطة الضعف فيك ؟

- نقطة الضعف لدى كصحفى هى عدم اختلاطى بالناس ، فأنا أقضى فى مكتبى أكثر مما أقضى فى الاحتكاك بالناس .. أما نقطة الضعف فى كإنسان ورجل ، فهى أننى خجول ، ومجامل أكثر من اللازم ، فأنا لا أحب أن أصدم أحداً على المستوى الشخصى وهذا كثيرا ما يحمل أعصابى أكثر من طاقتها ، خاصة وأننا ما نزال فى مجتمعنا نرفض تقبل الحقيقة والنقد . مستحيل على الفرد أن يأخذ النقد بشكل موضوعى .

وعيوبك الواضحة ؟

- النسيان .. وعدم الرد على الخطابات .

والفضيلة التى تتمسك بها ؟

- شجاعة العقل .. إن المعنى الشائع عندنا للشجاعة هو أن المرء لا يخاف ، من الخوف

المادى ، ولكن المعنى الذى أقصده للشجاعة ، هو ألا يخاف المرء من الأفكار الجديدة ، والحقائق الجديدة إن قيمة شجاعة العقل هذه ذات أهمية كبيرة خصوصاً فى هذه الفترة من حياتنا فالعالم من حولنا كله تغير .

والحكمة التى تؤمن بها ؟

- " لا يصح إلا الصحيح " .. أنا أعتقد أنه فى كثير من الظروف تطفو على السطح بعض القيم الزائفة ، أو بعض الأشخاص الزائفين وهذا ما يبعث اليأس فى نفوس الشباب ، ويظنون أن طريق النجاح الوحيد-هو أن يسبحوا فى تيارات الزيف .. ولكنى أؤمن بأن الذى يخلص فى عمله هو الذى يبقى على المدى الطويل ..

* متى تزوجت ؟

- فى مايو سنة ١٩٥٨ .

* عن حب ؟

- نعم .

* كيف بدأ الحب ؟

- عندما كنت رئيساً لتحرير صباح الخير ، وصلنى خطاب باللغة الإنجليزية من طالبة بكلية الآداب تناقشنى فى مقال كتبته ، ولفت نظرى هذا الخطاب ، فرددت عليه ، واتصلت خطابات المناقشة بين الكاتبة وبينى ثم انقطعت خطاباتها فترة . عرفت بعدها أنها كانت مشغولة بامتحان الليسانس . ودعيت مرة لسهرة عند أحد الأصدقاء ، وهناك رأيتها وعرفت منها أنها صاحبة الخطابات .. وكانت أول معرفة ، ثم تكرر اللقاء ، وكان الحب ، ثم الزواج .

* هل تعمل زوجتك ؟

- لا .. ولكنها تنتدب أحياناً من قبل الجامعة لإلقاء بعض المحاضرات فى كلية الآداب .

* الزواج .. هل يقتل الحب ؟

- الزواج يقتل الحب حين يكشف عن عنصر جديد لم يكن واضحا للطرفين قبل الزواج ، ولكنه فى فترة ما قبل الزواج ، لا يرى كل طرف الآخر غير ساعات قليلة ، وفيها يحرص كل الطرفين أن يبدو فى أحسن حالاته ، وذلك قطعا ليس بقصد الخداع . ولكن هذا يكون طبيعيا .. أما الزواج فيضعهما معا وجها لوجه لمدة ٢٤ ساعة فى اليوم .. بلا قناع .. وتظهر جوانب جديدة .. وربما لقيت هذه الجوانب نفوراً من الطرف الآخر ، .. وعندئذ يهتز الحب ..

وبهاء .. يؤمن بالحب ويوافق العقاد عندما يقول : " إذا أحببت امرأة .. لا لأنها أجمل النساء ، ولا لأنها أذكى النساء ، ولا لأنها أغنى النساء .. ولكن لأنها هى هى بمجموع عيوبها ومميزاتها .. فهذا هو الحب " .. ويرى بهاء أن الحب هو رغبة فى الاكتمال ، ويروى لك حكاية الأسطورة اليونانية التى تقول أن الإنسان الأول كان إنساناً واحداً ثم انقسم إلى نوعين ، نوع اسمه الرجال ، ونوع اسمه النساء .. ويظل كل نوع يفتقد النوع الآخر ، وبه رغبة حقيقية وطبيعية فى العثور عليه .. وقد يجده حقيقة ، وقد يعتقد أنه وجده ثم يغير رأيه - فشعور الحب هو شعور رغبة الاكتمال .

وهو يرى أن المبدأ والعقيدة أغلى وأجمل من الحب فهناك من يموتون من أجل المبدأ ، ولكنهم لا يموتون من أجل الحب ، كما أن المراحل الأولى فى الحب هى ألذ ما فى الحب لأنها مليئة بالأوهام والحب فيها مغلف بضباب لا يمكن وصف لونه .

* وما الذى يقتل الحب ؟

- المبالغة فى كل شئ فيه .. المبالغة فى التحكم ، المبالغة فى الشك ، المبالغة فى إهمال الحب نفسه .. المبالغة حتى فى الأمل فيه !!

والذى أقوى من الحب ؟

- الفقر والزمن .. أقوى من الحب .. وهناك مثل فرنسى يقول " الجديد يمحو الخطى " .. فالزمن يمحو كل شئ .

* مين السبب فى الحب .. القلب والا العين ؟

- القلب ، فحب العين هو حب الشكل الخارجى .

* هل يشيب القلب كما تشيب أعضاء الجسد ؟

- نعم يشيب ، قد يشيب القلب فى عنفوان شبابه ، وقد يبقى شابا لآخر العمر ، والشيب هنا شيب معنوى .

* أيهما أكثر تطرفاً فى الحب .. المرأة أم الرجل ؟

- المرأة .. لأنها بطبيعة حياتها أكثر تركيزاً على هذه العواطف .. إن الحب والكره هما محور حياتها .. أما الرجل ففى حياته عادة أكثر من محور .

*ما الذى يلفت نظرك فى المرأة ؟

- الجاذبية ، والذكاء .

* والذى لا يعجبك فيها ؟

- الغباء .. أو أن تكون فى عالم آخر غير العالم الذى أعيش فيه وأعرفه .. هناك نساء فى منتهى الجمال .. لكن بعد أن تقول الواحدة منهن عشر كلمات تشعر بنفور ورغبة ملحة فى الفرار من أمامها .

الفصل الثانى

لا أطيق البقاء مع ملكة جمال غبية خمس دقائق

قال لى أحمد بهاء الدين إنه لا يطيق البقاء خمس دقائق مع امرأة غبية مهما كان جمالها ، وشبه لى المرأة الغبية بلوحة ملونة ، اللوحة الملونة تستطيع أن تتأملها دقائق ، وتعجب بها ، ولكنك فى نفس الوقت لا تستطيع " التعايش " معها ، بل وأكثر من ذلك : اللوحة تستطيع أن تضعها أمام عينيك وتتأملها وأنت صامت وهى أيضا صامتة ، أما المرأة الجميلة الغبية فهى لا تقبل صمتك ولا تلزم صمتها ! ولكنها تفتح فمها لتقول لك كلاماً سخيفاً يتصاعد من ثغرها الجميل " كالهباب الأسود " الذى يطمس جمالها .

* ولكن .. يا أستاذ بهاء .. كيف استطاع إذن آرثر ميلر أن يطيق الحياة مع مارلين مونرو تحت سقف واحد لمدة ثلاث سنوات تقريباً وكان يعلن فى كل فترة أنه فى منتهى السعادة ؟

وضحك أحمد بهاء الدين وهو يقول لى :

– ومن قال لك أن مارلين مونرو غبية ؟

* السينما والصحف الأمريكية ..

– هذا ليس بصحيح .. مجرد دعاية .. فلو لم تكن مارلين مونرو على جانب من الذكاء لما استطاعت أن تحتفظ بآرثر ميلر طوال هذه السنوات ، فالمرأة قد تقنع الرجال بجمالها لأول وهلة . ولكن لفترة قصيرة أما الإقناع لفترة طويلة فهو يحتاج لذكاء . والذكاء ليس معناه قراءة الكتب كما هو شائع . ولكن هناك الفطرة الذكية والحواس الذكية وأيضا الغرائز الذكية . فأنا لا أقصد بالذكاء هنا مناقشة النظريات الفلسفية مثلا ، فحتى بين دارسى النظريات الفلسفية يوجد أغبياء !

وكان هذا الحديث بداية محاولة الغرض منها الوصول إلى قلب " أحمد بهاء الدين " لمعرفة أسراره لمعرفة مكانة المرأة فى هذا القلب . هل يرقى بها عالياً لأنه مفتون بها ؟ أم ينزل بها إلى أسفل السافلين لأنه حاقد عليها ؟ هل هو مع مارسيل بروست عندما يقول إن الحب كالمرض ، كالوباء يحملنا إلى دنيا التعاسة ؟ أم إنه يؤمن بأن الحب دافع إلى المجد وأنه كان دائما وراء انتصارات العظماء فى كل أنحاء الدنيا ؟ .. المهم .. أننى فتحت قلبه . وجعلته يناقش معى مشاكل الزواج والشباب بنفس الصراحة والبساطة التى يوضح لنا بها أعقد مشاكل العالم السياسية .

وكانت البداية سؤالاً جعله يسرع إلى إشعال سيجارة محاولاً اكتساب وقت للتفكير فى هذا السؤال قبل الإجابة عليه ..

قلت له :

* من هى الصحفية " نورية إسماعيلوفا " التى رأيتها فى طشقند وكتبت عنها فى مقدمة كتابك : " شهر فى روسيا " ؟

- إنها صحفية شابة من أزبكستان .. زاملتنى فى الأيام القليلة التى قضيتها هناك !

* ولكن بعض النـاس شمـوا رائحـة الحب عندمـا قلت عنهـا "بحثنا فى جيوبنا عن تذكارات نتبادلها فلم نجـد ، وكتبت لى كلمة " سلام " بلغتها وكتبت لها نفس الكلمة بلغتى .. واعتبرت أن هذه الكلمة لغة مشتركة بين إنسانين لكل منهمـا لغته ، وهذه اللغة دعوة للناس جميعا .. لأنها الحب ! " .

- إذا كنت تقصد أنه كانت بيننا علاقة غرامية . فهذا غير صـحيح .. المشكلة هى أن الكاتب أو الصحفى إذا كتب عن فتاة التقى بهـا فى أى مكان .. ظن الناس أنه كانت هناك علاقة غرامية بين الاثنين وهذا بالطبع غير صحيح .

* ليه ؟

- لأن هذا الاستنتاج الخاطئ له سببان .. السبب الأول هو الناس أنفسهم ، كثير منهم عندنا لم يتطوروا التطور الاجتماعى الكافى بحيث يتصور كل واحد منهم أنه من المستحيل قيام صداقة عميقة بين رجل وامرأة دون أن يكون لهذه الصداقة أية صلة بالعلاقات الغرامية بالمعنى الشائع فى الأذهان .

* والسبب الثانى .. ؟

- صحـافتنا .. التى عرفت فى كثيـر من الأوقات مـا أسميـه " بكتابة المغامرات ! " كانت الموضة بين الكتاب والصحفيين أن يوهموا القراء بأن واحداًمنهم " دون جوان " لا تصمد أى امرأة لمقاومته سواء كانت المرأة المسكينة فى لندن أو باريس أو هونج كونج !!

* ولكن .. مرة ثانية يا أستاذ بهاء .. تجاربك .. الدنيا التى عشتها ، هل من حقنا أن نتعرف على بعض منها ؟

لمعت عيناه خجلاً وقال :

– طبعا من حقكم . بشرط أن تكون التجربة التى يرويها الكاتب لها مغزى يهم الناس . وأن يسرد الكاتب تجربته بطريقة غير شخصية . وهذا يختلف جداً عن الكتابة التى تقوم بمهمة الإعلان عن فروسية الكاتب فى عالم المرأة !

* إذن .. هل كانت زوجتك هى التجربة الأولى لك فى الحب ؟

– لا .. لم تكن التجربة الأولى فى حياتى .

* يعنى أحببت قبلها ؟

– نعم !

* وجربت الفشل والنجاح مع المرأة ؟

– جربته !

* ومتى كنت تفشل ومتى كنت تنجح ؟

– كنت أفشل عندما أحاول أن أنزل على شروط المرأة . وكنت أنجح حينما أحاول أن أجعلها تنزل على شروطى .

* طيب .. السؤال الذى أريده بالضبط .. هناك رأى يقول إن المرأة تبتعد عن الرجل كلما تدله فى حبها .. وأنها كلما ابتعدت عن الرجل زاد الرجل شغفا بها .. هل هذا الرأى صحيح ؟

– هذه التعقيدات سببها أننا فى مرحلة انتقال بالنسبة للعلاقات الاجتماعية .. المرأة فى بلادنا عاشت قروناً طويلة فى نظام اجتماعى لا يسمح بأن يكون لها رأى ايجابى فى أى شئ .. ليس لها رأى فى اختيار الزوج ، وليس لها رأى فى تربية الأولاد ، وليس لها رأى فى رسم مستقبلها ، وليس لها رأى فى القضايا العامة التى تشغل بال الرجال . وبهذه

الطريقة كان الوضع القديم يجعل المرأة " تتلقى " الرغبات والطلبات . وليس من حقها هى أن " تبدى " رغبتها أو تطلب شيئا ..

وآباؤنا يحدثوننا بأن الأب مثلاً كان يبلغ ابنته أنها ستتزوج فلاناً وكان لا يصح أن تقول الفتاة إنها موافقة . بل كان يجب عليها أن تسكت وتطرق برأسها إلى الأرض ، لأنها لو قالت إنها موافقه أو أبدت فرحها بالنبأ فمعنى هذا أنها ترغب فى الزواج أو تتلهف عليه . وهذه قلة أدب ! إلى هذا الحد كان موقف المرأة سلبياً ، حتى أصبحت كرامتها فى سلبيتها ..

* ولكن هل هذا يتغير الآن ؟

- طبعاً يتغير .. فالمرأة تخرج الآن إلى الحياة . وتعمل وتفكر ، وتناقش ، وتختار زوجها ، وترفض العريس الذى يختاره أبوها إذا كان لا يعجبها .. ولكن الرواسب القديمة لا تتبدد عادة بسرعة ، فهى فى قرارة نفسها ما زالت تحس أن تقدير الرجل لها سيزيد كلما قالت له : " لا " حتى لو لم يكن هناك مبرر لذلك..

وهذه الرواسب ليست مقصورة على المرأة ولكنها موجودة بالضبط فى الرجل . فالرجل - لكل هذه الأسباب السابقة - مازال بالفعل يعجب بالمرأة التى تخفى رغباتها وراء جدران من الرفض أو الصد ، أكثر مما يعجب بالمرأة إذا كانت بسيطة وصريحة مع نفسها ..

* هل يعنى هذا أنك استطعت أن تفهم طبيعة المرأة ؟

- أنا أرى أن الكلام الذى يقال عادة عن أن المرأة لغز أو المرأة ملاك أو المرأة شيطان .. كلام سخيف . لا يبعث إلا على السخرية وهو من اختراع الرجال الفارغين عقلاً وقلباً الذين يحاولون تبرير تفرغهم للمغامرات النسائية بهذا الكلام عن الألغاز . كأن الرحلة إلى قلب المرأة رحلة إلى الفضاء الخارجى يجب أن تكون محل التكريم والترحيب ! ..

* إذن .. كيف ترى المرأة ؟

- المسألة فى الواقع بسيطة جداً . المرأة مخلوق عادى . النساء منهن الملاك والشيطان . البسيطة والمعقدة . تماماً كما أن الرجال فيهم البسيط والمعقد والملاك والشيطان . والمرأة

لا تريد من الرجل إلا المعاملة الإنسانية . أن يعاملها على قدم المساواة ، أن يحترم عواطفها وعقلها على السواء . أما الذين يعاملون المرأة على أنها حيوان تجارب طريف فهم الذين يخسرون آخر الأمر !

* ولكن .. لماذا ترفض المرأة دائما المنطق الواقعى كحل دائما لمشاكلها وتجرى دائما وراء الخيال ؟

- المرأة ليست خيالية على طول الخط . إنها خيالية فى بعض النواحى أكثر من الرجال . ولكنها فى نواحٍ أخرى واقعية أكثر منهم !

* كيف ؟

- المرأة خيالية بمعنى أنها تسعى وراء الصور الجميلة فى حياتها . وأمانيها تنصرف إلى ألوان كثيرة من المتعة والرفاهية . ولذلك فهى تحب دائما أن يقدم لها كل شئ فى إطار جميل رقيق . فإذا قرر الرجل مثلاً أن يقول للمرأة إنه يحبها فهو أحيانا يفضل أن يقول لها هذا فى أسرع فرصة حتى ولو كانا واقفين فى محطة أوتوبيس فى عز الظهر والعرق يتصبب منهما . أما المرأة فهى تفضل لو أجل هذه الكلمة حتى يقولها لها فى جلسة شاعرية أو مكان خافت الضوء ..

* وواقعية المرأة .. ؟

-فى أنها أكثر تركيزاً من الرجل فى تحويل الحب إلى زواج وأكثر ميلاً إلى إقامة بيت والاستقرار فيه . وأكثر رغبة فى إنجاب الأولاد وضمان مستقبلهم . كما أن غريزة الاقتناء عندها أقوى من الرجل . وهى بعد كل هذا تفضل دخلاً مضموناً ولو كان أقل من الدخل الذى يقترن بالمخاطرة فهى فى هذا كله أكثر واقعية من الرجل !

* طيب .. لكل رجل لون من النساء يعجبه ويثيره . وهذا الإعجاب تتكون أوصافه ومميزاته من مؤثرات غامضة أثناء الطفولة أو الصبا . من هى المرأة التى تعجبك ؟

- من حيث الجمال تعجبنى المرأة ذات الجمال الهادئ لا الصارخ . فأنا لا تعجبنى المرأة التى يلفت جمالها النظر لأول وهلة بأشياء صارخة كلون فاقع فى شعرها أو فم بارز كبير .

أو أى صفة أخرى مبالغ فيها فأنا تعجبنى المرأة التى أكتشف جمالها كلما تأملت فيها ..

وذوقى يفضل المرأة الصغيرة الحجم . التى تكون أشبه بتمثال دقيق الصنع لا بتماثيل الميادين !

والمواصفات التقليدية للجمال فى رأيي غير صحيحة . هناك امرأة قد يكون أنفها أكبر من اللازم أو سيقانها " أتخن " من المقاييس المتعارف عليها . ولكنها تكون جميلة جدا . لأن الجمال فى المرأة هو جمالها " على بعضه " وليس جمال قطع ومساحات منفصلة متفرقة فيها .

والجمال لا يمكن أن ينفصل عن الجاذبية . بل يمكننا أن نقول إن الجمال هو الجاذبية . والجاذبية لا غنى لها عن الذكاء ..

ولذلك فأنا أعجب بالمرأة الذكية تحت شرط واحد .. ألا تحاول إثبات ذكائها فى كل دقيقة !

* وغيرة المرأة فى نظرك .. هل سببها غريزة حب الامتلاك أم أنها نابعة من حب قوى ؟

- الغيرة لها أسباب مختلفة فى الحالات المختلفة فهناك امرأة تحس بالغيرة المطلقة من جميع النساء وهذا يكون سببه عادة فشلا تحس به المرأة أو مرارة داخلية بسبب خيبة ما فى الحياة . وهناك امرأة تحس بالغيرة بسبب الطموح الشديد . والرغبة العارمة فى البروز والتفوق . كذلك المرأة التى تحب أن تكون بمفردها فى صحبة عدد من الرجال وتكره وجود امرأة غيرها ، لمجرد أن الاهتمام فى هذه الحالة سوف يتوزع بينهما . حتى ولو كانت المرأة الأخرى أقل منها جمالاً أو ذكاءً ..

وهناك الغيرة التى سببها حب الامتلاك ، كالزوجة التى تعرف جيداً أن زوجها مخلص لها ولكنها تغار من الوقت الذى يقضيه فى عمله ، وتغار من ساعات سرحانه وتغار من الوقت الذى يقضيه مع أصدقائه ، وهذا النوع يقترن بالأنانية . فهى تريد أن تكون عين زوجها دائماً عليها . وفكره دائما فيها .. ووقته كله لها !

* وشبان وبنات هذا الجيل .. كيف تراهم .. وكيف تقارنهم بالجيل السابق ؟ .

- الغلطة الشائعة فى المقارنة بين الجيل الجديد والجيل السابق عليه إننا مثلاً نقارن بين شاب أو فتاة فى سن العشرين وبين رجل أو امرأة فى سن الأربعين ، مع أن الصحيح هو أن نقارن الجيل الجديد بهذا الرجل أو المرأة حين كانا بدورهما فى سن العشرين ! وفى هذه الحالة سنجد أنهما كانا يعيشان نفس الأحلام .. والحماقات .. والتجارب والأخطاء !

قلت له :

* وأخيراً .. ما هى حدود الحرية التى تؤمن بها بالنسبة للمرأة الشرقية ؟

وقال على الفور :

- هى نفس الحدود التى أؤمن بها بالنسبة للرجل . إن أى محاولة لوضع حدود مختلفة بالنسبة للجنسين لا يمكن أن تفلح . لأنها محاولة مصطنعة وغير واقعية ، وغير عادلة ..

وليس هذا طبعاً هو الوضع الموجود حالياً .. ولكنه بالتأكيد الوضع الذى سنصل إليه بسرعة .

الفصل الثالث

فصل فى الرقيب !

يضحك الكاتب الصحفى " أحمد بهاء الدين " وهو يتذكر المقالب والحيل التى كان هو والأستاذ " صلاح حافظ " يفعلانها للتغلب على القيود التى يضعها الرقيب على الصحف .

فيقول :

– كنت أنا وصلاح حافظ سبباً فى صداع دائم للرقباء ! وكانت العهود مختلفة فى موضوع الرقابة . والعهد الواحد مختلف بين فترة وأخرى وتعلمنا خداع الرقيب ، وأذكر على سبيل المثال أنه كان يشغلنا فى كل عدد الحيلة التى نخترعها لخداعه حتى نمرر ما نريد نشره من تحت أنفه دون أن يشعر !

وتعلو ضحكته وهو يتذكر ويقول :

– وبالفعل كان الرقيب ينقل فور صدور عدد " روز اليوسف " ويأتى رقيب جديد يظل فى وظيفته لمدة أسبوعٍ واحد . وأخيرا اختار الرئيس عبد الناصر مدير مكتبه شخصياً ليصبح رقيباً ، فقررت أنا وصلاح حافظ أن نثبت للدولة أننا قادرون على خداع الرقيب أيا كان ، وخططنا بمكر شديد لهذه المؤامرة .

* وماذا فعلتم ؟

– كتبت مقالاً عن كتاب اسمه " طوق الحمامة " وهو من كتب الأدب الأندلسى ومن عيون الأدب العربى وهو كتاب مهم جداً من تأليف ابن حزم ويدور حول العشق والعشاق ومشاكل العشاق وحيل العشاق وأوهام المحبين ، وكان من أبواب هذا الكتاب باب اسمه " فصل فى الرقيب" وكان يقصد بالرقيب ما نسميه نحن " العزول " أو الشخص المكلف من قبل الأسرة بمراقبة العاشقين . والفصل كله يدور حول سماجة الرقيب وسخافته وقلة ذوق الرقيب ، وكيف يحشر هذا الرقيب نفسه فيما لا يعنيه .

وفى نهاية المقال كتبت : ولكن الرقيب ، رقيب الحب ، يزيد الحب اشتعالاً لأنه يجعل العشاق يخترعون الحيل والوسائل ليتحايلوا ويضحكوا على سذاجته !

ويضحك بهاء ويقول :

– طبعا كتبت هذا الكلام بينما أتكلم عن ابن حزم وعن الأدب الأندلسى وعرضنا البروفات على

الرقيب فوجدها من كتاب أدبي من التراث ولم يلفت نظره ما بين السطور !

والغريب أننا لم نكتف بهذا بل رسم زميلنا رسام الكاريكاتير الراحل " عبد السميع "– وهو واحد من أهم رسامي الكاريكاتير في مصر – رسما لامرأة جالسة تغسل الملابس في "طشت" غسيل ومعلق في سقف الغرفة التي تجلس فيها ببغاء يكرر كلمتين : " ينشر .. لا ينشر . ينشر .. لا ينشر " !

وعندما بدأنا إخراج صفحات العدد ، وضعنا في الصفحة الأولى في فهرس العدد : " باب في الرقيب " ، وكاريكاتير " ينشر .. ولا ينشر " وطبعا كانت الصفحة الأولى مثل القنبلة ، وكانت نكتة البلد كلها ، وأضحكت الرئيس جمال عبد الناصر شخصياً . ولكننا أدركنا بعد ذلك أن عمر هذه الحيل والخدع قصير . فبعد صدور كل عدد تكون المهمة أصعب ، ولا يمكن الاستمرار في ذلك على المدى الطويل .

* ومتى فرضت الرقابة في عهد الرئيس جمال عبد الناصر ؟

– كانت هناك فترات تفرض فيها الرقابة وفترات أخرى ترفع ، فمثلاً على عكس ما يعتقد الكثيرون كانت الرقابة طوال فترة حرب ١٩٥٦ مرفوعة عن الصحف ، وماقبلها وما بعدها أيضا . وكانت الضوابط على ما ينشر تتم فقط في اجتماع مع رؤساء التحرير ، وكان اجتماعاً أسبوعياً يعقده أنور السادات وكان مسئولا عن الصحافة في ذلك الوقت .

* وهل مارست دور الرقيب عندما كنت رئيساً للتحرير ؟

– رئيس التحرير سواء في ظل وجود رقابة أو عدم وجودها هو المسئول عن كل ما ينشر ، والمسئول عن سياسة الجريدة وتنفيذها ، وليس معنى هذا بالضرورة أن يمارس الحجر على رأي يخالف رأيه ، أو أن تسير الجريدة في مجرى ضيق لاتخرج عنه ، فلابد أن يكون لكل صحيفة اتجاه واضح ، ورئيس التحرير من موسكو إلى واشنطن يمارس هذه المهمة ، وهذا حقه .

ولكن تختلف المعاملات بين رئيس التحرير الذي ينفذ التعليمات حرفيا وبين رئيس التحرير الذي يمرر ما يراه ولكن بذكاء ، ولا يطيع الأوامر طاعة مطلقة .. بل يحاول أن يوسع من دائرة ما يراه صالحا للنشر على مسئوليته إذا شعر بأن فيه مصلحة ولا يؤدي إلى كارثة مثلاً .

وقطعاً يقوم رئيس التحرير بدور الرقيب بشكل ما ، فهو ليس " محولجياً " يتلقى المادة ويقوم بنشرها ، فلابد أن يكون له تقدير ، ولكن كما قلت هناك المتشدد ، وهناك المتساهل . وفي كل الأحوال يجب أن يناقش رئيس التحرير كاتب المقال الذى يرى عدم نشره ويستشيره ويبرر له أسبابه فى عدم النشر .

* وكيف تعاملت مع الرقابة الشديدة على الصحف وحرية الرأى أيام جمال عبد الناصر ؟

هناك نقطة جوهرية يجب أن توضع فى الحسبان ، إذا كان الحساب منصباً علىّ شخصياً ، فلا يجب فصل أمر مهم ، هو أننى كنت من أنصار الثورة ، وهذا يختلف فلو كنت من المعارضين لها فقطعا كنت سأشعر بوطأة الرقابة أكثر مما لو كنت من أنصارها . وأنا لم أكن من أنصارها بمعنى التبعية ، لأنى أزعم أننى والكثيرين من أبناء جيلى الذين بدأوا الكتابة قبل الثورة بقليل ، أزعم أننا نادينا بما قامت به الثورة قبل أن تقوم به ، وأنها فى أساسيتها لم تأت بجديد . فهذه طبعا مسألة مهمة لأن التأييد هنا عن اقناع . فأنا من الجيل الذى كتب وطالب بالتأميم ، ليس بالطريقة التى تم بها ولكن بالأسلوب الذى رأيت فيه دول المعسكر الغربى الرأسمالى تستفيد من تجارب المعسكر الشرقى .

وكنت فى أول حياتى الصحفية أكتب فى مجلة اسمها " الفصول " كان يصدرها الرائد الكبير " محمد زكى عبد القادر " ، وطالبت بتأميم البنك المركزى لأنه من أملاك الدولة ولأنه لا يصح أن يكون ملكاً للإنجليز .

كذلك طالبت بتأميم تجارة القطن لأن ثروة مصر الوحيدة كانت هى القطن . وكانت هى السلعة الوحيدة التى نصدرها كخام غير مصنّع وكان هناك أربعة أشخاص يحتكرون تجارة القطن وتصديرها ويحتكرون إيراد الدولة الوحيد من العملة الصعبة ، فكتبت بوجوب تأميم تجارة القطن .

ويستطرد " أحمد بهاء الدين " قائلا :

- وفى موضوع القومية العربية ، كنت أنا وجيلى من أكثر المتطرفين فى موضوع الوحدة بين مصر وسوريا . وهذا بالطبع لم يجعل بينى وبين السلطة فى ذلك الوقت التناقض الحاد الذى كان يمكن أن يقع لو أننى فى الجانب الآخر ، فأنا مثلا أول من طالب بتسمية الاتحاد

القومى بالاتحاد الاشتراكى قبل أن يخطر هذا على بال أحد . وما زلت أعتقد أننى كنت فى التيار الذى يسمى بالاشتراكية الديمقراطية الذى قام فى بعض دول أوروبا .

وأرى أن الحل الاقتصادى والسياسى لمختلف مشاكل مصر يكمن فى الاشتراكية الديمقراطية وليس فى تطبيق النظام الرأسمالى المحض والشيوعى ولكن فى الاشتراكية الديمقراطية .

ولذلك ، وعلى الرغم من وجود نقاط خلاف مع النظام فقد كنت أكتبها وكان يسمح لى بذلك ، هناك أعداد من " روز اليوسف " فى الوقت الذى توليت فيه رئاسة تحريرها ونشرت فيها حملات صحفية عنيفة لم أكتبها أنا ، ولكنى سمحت بنشرها ورحبت بأن تتبناها المجلة .

* هل معنى ذلك أن قبضة ذلك الوقت لم تكن بالشكل الذى نسمع عنه ، وكانت هناك مساحة من الحرية ؟

- الصورة المرسومة لذلك العصر صورة ظالمة . فلم يكن الصمت مطبقا ولم تكن الحرية مصادرة . وكانت هناك رقابة ... نعم . وكانت هنا قيود .. نعم . وكان حفاظ على ألاتمس السياسات العليا ولا تنقدها .. نعم . فكان ممنوعاً أن يهاجم كاتب الاتجاه إلى القومية العربية مثلاً .

ومع ذلك أظن أننى كنت النقيب الوحيد فى تاريخ نقابة الصحفيين الذى كتب مذكرة إلى الرئيس جمال عبد الناصر شخصيا وموجهة إليه بالاسم تحتج فيها النقابة على فرض الرقاب على الصحف بعد حرب ١٩٦٧ . ويومها رُفعت مذكرة إلى رئيس الجمهورية تطالب باعتقالى !

مذكــرة .. كـادت تـلقى بــى إلـــى الســجن !

لم أتعامل مع عبد الناصر شخصياً على الإطـلاق !!

استجمعت شجاعتى وسألت الأستاذ بهاء : أنت متهم بالهروب من أى مواجهة حقيقية ، ففى الظروف التى تتطلب تصدياً جريئاً شجاعاً تهرب مؤثرا الابتعاد والسلامة .. فما هو دفاعك ؟

ابتسم الأستاذ بهدوء وأشرق وجهه ببراعته المعهودة .

ثم قال :

- أنا لا أكتب لأسجل لمواقف عنترية ، بل أكتب لكى ينشر ما أكتبه ويصل للناس . ومع ذلك فأنت محقة ، فقد سمعت هذا الكلام كثيراً وتعجبت له فأنا أذكر على سبيل المثال أننى فى أول عهدى بالصحافة - وكنت نائباً لرئيس تحرير " روز اليوسف " - اعتقل إحسان عبد القدوس وكان رئيساً لتحرير المجلة بسبب مقال كتبه . كان ذلك بعد الثورة واستفزنا هذا الاعتقال وفكرنا ماذا نفعل ؟ وكيف نصدر بشكل عادى وننشر مواضيع ومقالات وكاريكاتير وتحقيقات كما تفعل أى مجلة أخرى ورئيس تحريرنا معتقل داخل السجن .. وفكرنا هل نمتنع عن الصدور أم ماذا نفعل ؟ !

فكرت كثيراً كيف نخرج من هذاالمأزق .. ثم صارحت السيدة روز اليوسف - وكانت بالفعل سيدة عظيمة لم أر مثلها فى شجاعتها - قلت لها إننا يجب أن نأخذ موقفا مما حدث ونعلنه على صفحات " روز اليوسف " ..

لكنى حذرتها من العواقب الوخيمة التى يمكن أن تنتج عن هذا الموقف . وقلت إن أقلها أن تصادر المجلة ، وبالتالى تفلس . وقلت لها لن أخسر شيئا فليس لى زوجة - فى ذلك الوقت - ولا أنا مسئول عن بيت . ولذلك فسوف أكون مستعدا لما يحدث لى ، أما أنت فلابد أن تفكرى جيدا قبل أن توافقى على ما أقترحه .

فسألتنى روز اليوسف : ماذا تنوى أن تفعل ؟

فقلت لها : ألاَّ نذكر على أى صفحة من صفحات المجلة ولا فى أى سطر منها " مجلس قيادة الثورة " لا فى خبر .. ولا فى موضوع .. ولا فى مقال .

وعلى الفور وافقت السيدة الشجاعة " روز اليوسف " وبدأنا ننفذ ما اعتزمنا تنفيذه ، وأثار

هذا كل أعضاء "مجلس قيادة الثورة" وحذرونى أكثر من مرة أن التصرف ربما يؤدى إلى نتائج خطيرة، ولكنى قلت لهم لن يذكر اسم "مجلس قيادة الثورة" إلا عندما يفرج عن إحسان عبد القدوس.

وبالفعل استمرينا على هذا الوضع حتى أفرج عن عبد القدوس بعد حوالى ثلاثة أشهر، وأنا لا أعتقد أننى هربت من موقف ولكننى آثرت ألا أكتب فى أى موضوع أشعر أننى لن أتمكن من عرض رأيى فيه بصراحة حتى لا يأتى مبتوراً أو مهزوزاً أو مملى علىّ. وفضلت دائما أن أبتعد عن هذه الموضوعات إلى موضوعات أخرى أستطيع أن أفيد فيها بلدى وقارئى.

* وهل تعرضت لفترة اختناق تحت ضغوط الرقابة وانحسار مساحة الحرية دفعتك للاحتجاب وعدم الكتابة؟

- أحب أن أذكر أننى كنت من أنصار الكتابة تحت أى ظروف وأرفض الابتعاد عن مهنتى حتى فى فترات الشدة، ولكننى كنت إذا لم أستطع أن أكتب رأيى أو جوهره فى موضوع ما أتركه وأكتب فى قضية أخرى، ففى إحدى الفترات مثلاً كتبت عن مشاكل القاهرة، وضرورة عودة اللون الأخضر وتعمير الصحراء وكنت أول من ناديت بإقامة مدن جديدة والخروج من الوادى الضيق وإقامة مراكز جذب سكانية، كانت هذه القضايا المهمة هى المخرج بالنسبة لى، أولاً لأننى لم أكن مستعداً لأن أكتب فى قضية رأيا غير ما أؤمن به، ثانياً أننى كنت أرى فى الكتابة فى هذه المواضيع التى اخترت الكتابة فيها أهمية كبيرة لأن تطرح ويبدأ الاهتمام بها على مستوى الدولة ولدى القراء أيضا. لذلك كتبت سلسلة مقالات بعنوان "نحو رسم خريطة جديدة لمصر" وتكلمت فيها عن كل هذه الموضوعات.

* قلت له: سؤال يلح على يا أستاذ بهاء.. لماذا كان الاغتراب الذى بدأته عام ١٩٧٦ بعد أن وصلت إلى قمة النجاح وتربعت عليها.. ولماذا قررت العودة فى عام ١٩٨٢ بعد ست سنوات بعيداً عن الوطن.. تعمل فى الكويت كرئيس لتحرير مجلة "العربى"؟

هل كان ذلك لأسباب تتعلق بحرية الرأى وعدم قدرتك على احتمال الضغوط؟

- فى الواقع لم يكن الأمر كذلك.. فعندما سمح لى السادات بالعمل فى الخارج اشترط

علىّ كتابة مقال أسبوعى فى الأهرام حتى لا أبدو كأننى غاضب أو مغضوب علىّ ، خاصة أننى كنت قد نقلت إلى مصلحة الاستعلامات ضمن ٩٠ صحفيا عندما وقعت أحداث المظاهرات فى عام ١٩٧٢ وقدمنا بياناً نؤيد فيه المظاهرات .

وقضينا عاماً كاملاً بعيدا عن وظائفنا ثم أعادنا السادات قبل حرب أكتوبر ٧٣ بقليل ، وتوليت أنا رئاسة تحرير الأهرام فى فترة عصيبة أيام ما بعد فض الاشتباك بعد حرب ٧٣ وكانت فترة تغيير حساسة للغاية .

ويكمل أحمد بهاء الدين حديثه قائلا : ويبدو أننى قد نالنى إرهاق شديد فى العمل ، وأنا من سن مبكرة جداً مصاب بعدة أمراض جاءت قبل الأوان من الضغط والسكر والقلب . وأذكر أنه خلال هذه الفترة العصيبة صحوت يوماً لأجد نفسى غير قادر على أن أتحكم فى أى عضو من أعضاء جسمى . مش قادر أقعد أو أقف أو أن أتحكم فى أى عضو من أطرافى . ولمدة شهرين كاملين كان على أن ألزم الفراش فى غرفة مظلمة كجزء من العلاج . وبعد بضعة شهور استطعت أن أمشى مستندا على عصا إلى أن ذهبت إلى أمريكا لأعالج فى مستشفى البحرية .

وهناك قالوا لى : حصل ارتفاع مفاجىء فى الضغط أحدث اختلالاً فى جهاز التوازن وأدى إلى جلطة فى شريان من شرايين المخ . وكان من حظى أن الجلطة أصابت شرياناً يمكن للدورة الدموية أن تتجاوزه أو تتفاداه .

انزعجت عندما سمعت هذا الكلام فى أمريكا . ولكن طبعا زوجتى قالت لى هذا هو تشخيص الأطباء المصريين بعد الدقائق العشر الأولى التى رأوك فيها ولكنهم أخفوا ذلك عنك فى مصر .

وطلب الأطباء الأمريكيون منى أن أتقاعد بالرغم من صغر السن النسبى وقتها - ٤٥ سنة - ولكن عندما وجدوا لدى رفضاً قاطعاً لهذا الكلام وافقوا على أن أعمل ولكن بعد أجازة لمدة عامين أقضيها فى قرية جبلية فى سويسرا ، وكانوا يتصورون أننى مليونير مادمت قد استطعت أن أحظى بفرصة العلاج فى مستشفى البحرية الأمريكية . وفكرت أن أعود إلى مصر وأعيش فى الإسكندرية وأولادى يدخلوا مدارس فى الإسكندرية . ومهما كان فإسكندرية ليست مثل القاهرة من ناحية التوتر .

وحقيقة طلبت أثناء مرضى مراراً من الرئيس السادات أن يعفينى من رئاسة تحرير الأهرام لأن المسألة كانت بالنسبة لى فعلاً مسألة حياة أو موت وكان الرئيس يرفض باستمرار . وبعد إلحاح من شرح طويل لحالتى الصحية وافق على سفرى إلى الكويت للعمل كرئيس تحرير لمجلة " العربى " ، ولأنها مجلة شهرية ثقافية فلم تكن تحتاج لجهد كبير كما كان فى الأهرام . وكان شرطه الوحيد أن أكتب فى الأهرام مرة كل أسبوع حتى لا يظن الناس أننى مبعد أو مغضوب علىّ .

* وهل حدث أن تعرضت لدخول السجن ثمنا لموقف أو لرأى ؟

ويضحك أحمد بهاء الدين وهو يتذكر الموقف العصيب ثم يقول :

- أستطيع أن أقول إننى كدت أدخل السجن بسبب مذكرة احتجاج رفعتها إلى الرئيس جمال عبد الناصر عام ٦٨ . وكنت نقيبا للصحفيين فى ذلك الوقت . واجتمعت مع زملائى أعضاء مجلس النقابة وكان الأستاذ الصديق سعيد سنبل وكيلاً للنقابة وقررنا رفع مذكرة إلى الرئيس جمال عبد الناصر تحتج فيها النقابة على فرض الرقابة على الصحف بعد هزيمة ١٩٦٧ وكنا النقابة الوحيدة بين النقابات التى تجرأت على هذا .

ويستطرد الكاتب أحمد بهاء الدين قائلاً :

- وهناك موقف آخر يؤكد المبالغة الشديدة فى وصف هذا العهد بأنه كان كله قهر وكبت للرأى وبطش بحرية الصحافة . فعندما قامت مظاهرات يناير ١٩٦٨ عقب ما يسمى بـ " محاكمات الطيران " اندلعت المظاهرات تعبر عن الانفجار الشعبى بعد النكسة واجتمعت بمجلس النقابة وقررنا إصدار بيان نؤيد فيه المظاهرات ونطالب الحكومة بعدم التدخل لإيقافها بالقوة وقلنا فى البيان أن ما تطالب به هذه المظاهرات فى جوهره أصبح مطالب شعبية وهى المزيد من الديمقراطية .

وجاءتنا تعليمات من الاتحاد الاشتراكى لكل النقابات بألا تعلن البيانات التى اجتمعنا لإصدارها . واتصل بى مسئول كبير فى منزلى لكى يبلغنى بهذا القرار .

كنا قد اجتمعنا فى الصباح وكانت النقابة تعج بالآلاف وقررنا كتابة البيان وكان المفروض أن نعود إلى النقابة .. وفى المساء اتصل بى المسئول الكبير عندما عدت إلى المنزل وقال لى

يجب ألا أفعل ذلك حتى لا أزيد النار اشتعالاً ، ولكنى أصررت على موقفى وقلت له : إما أن تتركنى أتصرف وأنا أعلم نتيجة تصرفى وسأكون المسئول عنه ، خاصة أن البيان رغم أنه كان مكتوباً بشجاعة إلا أنه كان مكتوباً أيضاً بحكمة ، وإما أن تقول لى اجلس فى بيتك وأنت غير مسئول عن النقابة ويتولى الاتحاد الاشتراكى الإشراف على النقابة بل يصبح المسئول عنها !

وقلت للمسئول الكبير : إذا لم تتصل بى حتى الساعة الرابعة -- وكان الموعد فى النقابة الساعة السادسة مساء -- فسوف أنزل إلى النقابة وأمضى فيما بدأنا فيه . وهذا ما حدث وكانت نقابة الصحفيين فى ذلك اليوم هى النقابة الوحيدة التى أصدرت البيان ولم تسحبه . وبالطبع شاركنى فى هذا الوقت كل أعضاء مجلس نقابة الصحفيين . وعرفت بعد ذلك أنه فى هذه الليلة رفع تقرير ووضع أمام الرئيس جمال عبد الناصر يوصى بضرورة اعتقالى !

* وكيف كانت علاقتك الشخصية بالرئيس جمال عبد الناصر ؟

- ربما يندهش الكثيرون إذا عرفوا أننى لم أتعامل مع عبد الناصر شخصياً على الإطلاق بعكس ما يتصورون ، وهذا بالطبع شئ غريب . إنما كأى صحفى وصلنى من بعض المسئولين والأصدقاء الصحفيين ما حدث فى هذه الليلة لدرجة أنهم حذرونى وقالوا لى : لا تنم فى بيتك لأنك سوف تعتقل الليلة !

وقد تعجبين لو عرفت أننى مررت بفترات اتهمت فيها بأننى شيوعى وفترة أخرى بأننى بعثى ، بل إننى رئيس حزب البعث السرى الموجود فى مصر . وكانت لى فعلا صداقات قوية من حزب البعث ومؤسسيه فى ذلك الوقت مثل ميشيل عفلق وصلاح البيطار -- وأكرم الحورانى وغيرهم . وكنت متجاوباً مع كثير من أفكارهم التى تبنتها مصر بعد ذلك فى مقدمتها شعار " الحرية ، الاشتراكية ، الوحدة " فهذا هو شعارهم .

ولكن فى النهاية ثبت للأجهزة الأمنية أننى لم أكن عضواً فى تنظيم ما . وأننى لا أعبر عن رأى أى حزب أو جهة . أنا أعبر عن رأيى الشخصى وهذا ساعدنى من حيث لا أشعر .

ويسكت أحمد بهاء الدين قليلاً ثم يعاود حديثه قائلاً :

-- وأعود لسؤالك عن علاقتى بعبد الناصر لأقول إن عبد الناصر تأكد من أننى لست معبراً

عن أحد بل عما أراه وهذا ما أنقذنى من الاعتقال فى تلك الليلة .

ولذلك فقد اهتم بأن يبلغنى رأيه فيما حدث عن طريق صديق عزيز عليه جداً هو سفير سوريا فى مصر فى ذلك الوقت الدكتور سامى الدروبى وكان شخصاً عزيزاً عليه جداً لأنه كان السفير الذى استقال من منصب الوزارة بعد الانفصال وكان سفيراً لسوريا فى بلجراد عندما ذهب عبد الناصر إلى يوغسلافيا فخرج هو وزوجته وأولاده يستقبلونه فى المطار رغم توتر العلاقات بين مصر وسوريا فى ذلك الوقت .

وقال الرئيس جمال عبد الناصر للسفير الدكتور سامى الدروبى :

" أبلغ بهاء أن تمسكه بإصدار البيان كان خطأ لأن هذه الليلة كانت خطيرة وكانت البلد مقلوبة والدولة لا تعرف إذا كان هذا الانفجار عفوياً أم أن هناك أيد تتآمر . وعندما قدمت لى مذكرة باعتقاله قلت لهم : لا هو بيكتب " اللى فى مخه " وكان هذا شيئاً مهماً بالنسبة لعبد الناصر فعنده كان هناك فارق بين الكاتب الذى يمثل سياسة حزب أو اتجاه أو واجهة لأحد وكاتب يكتب " اللى فى مخه " وهذا ماحمانى تماماً ، فقد تأكدوا أننى مقطوع الصلة بأى تيار ولم يكن لى ظاهر وباطن .

* وهل حماك هذا الاستقلال والتجرد من شبهة تمثيل تيار أو حزب من الاضطهاد أو القهر الذى تعرض له غيرك من الصحفيين فى ذلك الوقت ؟

كلامى هذا لا ينفى أنه كان هناك ظلم فى بعض الحالات . وأنا نفسى منعت لى مقالات مثل غيرى ، ولكنى أتحدث عن تجربتى الشخصية والفارق كان بين صحفى مؤمن بأهداف الثورة ومبادر وسباق عن قناعة للمطالبة بهذه الأهداف ، وهذا بالطبع لا يمكن أن يجعله معارضاً لها ، وبين صحفى آخر دافع عن العهد القديم بشكل أو بآخر . وربما حمانى وحمى الكثيرين علاقتهم بالثورة . وأنا أكرر العلاقة العقيدية والاقتناعية التى لا ترتبط بشخصى . وعلى كل حال أستطيع أن أقول إننى لا أذكر أننى نافقت حاكماً أو مسئولاً . ولو كانت ذاكرتى تخوننى فقطعاً أنا كنت أقل الكتاب الصحفيين نفاقاً . والصحفى لا يستطيع أن يخفى أو ينكر ما كتبه لأنه مسجل على صفحات الجرائد .

الفصل الخامس

عندنا حزب فى العالم العربى اسمه .. « حزب القرود » !

* نحن نشهد الآن ثورة فى مناطق كثيرة فى العالم ، وكأن الكرة الأرضية أصبحت كرة معدنية تنصهر من الداخل لتتشكل من جديد ، فما هو تصورك للشكل النهائى أو الصياغة الأخيرة لهذا العالم الجديد ؟

– فى أوئل الستينات كتبت مقالا بمساحة الصفحة الثالثة بأكملها فى صحيفة " أخبار اليوم " بعنوان " النظريات تنزل عن العرش " وكانت بداية لسلسة مقالات فى الموضوع نفسة كان تقديرى وقتها أن الصراع النظرى قد استهلك أغراضه .. وأن المواطن الجديد بحكم التطور الرهيب فى وسائل المعرفة والاتصال تجاوز طموحه المطالب المتواضعة إلى طموح أكبر فى أن يناله شئ من هذا التقدم الذى يتابعه . قلت فى ذلك الوقت إن الثورة الحقيقية هى " ثورة الآمال الكبيرة " ولم يكن هذا التعبير من اختراعى بل كان تعبير " يوجين بلاك " أول رئيس للبنك الدولى الذى ألف كتابا يحمل الاسم نفسه .

أقنعتنى جدا أفكار يوجين أو توقعاته لذلك كتبت أنها الثورة التى سوف تكتسح كل شئ أمامها وسوف يتوقف عليها مستقبل العالم لأن المواطن العادى فى أى بلدان لن يختار الشيوعية التى ستحقق العدل والمساواة بعد ١٠٠ سنة ، أو الرأسمالية لأنها تحقق النمو السريع عن طريق المنافسة والقطاع الخاص ، بل إنه لن يكون للمعنى النظرى لهذه الأيديولوجيات أى قيمة إلا فى حدود ما تحققه بشكل علمى وملموس لهذا المواطن ، أى أن ينال شيئا من هذا كله فى حياته .

* ماذ كان مضمون هذه السلسة ؟

– كتبت قائلا : لابد للرأسمالية والاشتراكية أن يتفاهما فلا مستقبل لهذا ولا لذاك إلا إذا استفاد كل معسكر بتجارب المعسكر الآخر ، ومن دون ذلك لامستقبل لأى منهما ، فهناك مشاكل كثيرة تحتاج تضافر دول العالم كله وتعاونه لمواجهتها ؛ مشاكل نقص الغذاء ، مشاكل التلوث ، ومشاكل الصراع النووى .

هذا لم يكن رأيى فقط بل كنت أستشهد بكتاب محدد هو كتاب " يوجين بلاك " الذى وجهنى إلى هذه الفكرة .

* وهل تعتقد أن ثورة الألمانيين الشرقيين كانت ثورة الجياع إلى الحرية والديموقراطية ..

أم ثورة الطامحين للرخاء والرفاهية ؟

- لا نستطيع أن نقول إن سببها أحد هذين المطلبين بل أقول إنه على الرغم من رغبة الألمانيين الشرقيين فى الحرية والديموقراطية هناك العامل الاقتصادى الذى لا نسطيع أن نقلل من أهميته ، فالرخاء الهائل فى أغنى دولة إنتاجية فى العالم وهى ألمانيا الغربية عامل مهم ، والناس تعتقد أن أغنى دولة إنتاجيا هى اليابان ، والحقيقة أن اليابان تنتج أعظم إنتاج فى العالم ، لكنها لا زالت تعيش مرحلة التقشف ، اليابانى يعيش حياة بسيطة ومتواضعة أما ألمانيا فهى مجتمع صناعى قديم ، راسخ فى القدم ، ويعيش أغنى حياة فى أوروبا ، يشعر بذلك من يعبر الحدود من فرنسا إلى ألمانيا الغربية ، أو من إيطاليا إلى ألمانيا الغربية ، فالفرق واضح فى كل شئ ؛ فى الخدمات ، وفى الطرق ، فى كل أدوات التطور ووسائل الرفاهية .

إذن الهجرة من ألمانيا الشرقية إلى ألمانيا الغربية لها أسباب كثيرة ولكن من أهمها العامل الاقتصادى .

والشئ الآخر الذى يدعم هجرة الألمان الشرقيين إلى ألمانيا الغربية هو شعورهم بأنها ليست هجرة ، بل إنهم يسافرون من جزء إلى جزء آخر فى بلدهم ، ولا ننسى أيضا أن المعسكر الرأسمالى كان أذكى من المعسكر الاشتراكى فى الاستفادة من تجارب ومبادئ المعسكر الاشتراكى . وهذا يرجع إلى طبيعة المنتمين إلى هذا المعسكر ، فهم براجماتيون عمليون بطبعهم إذ يضع الرأسمالى النظرية قبل التعامل مع الواقع ، فإنجلترا بعد الحرب العالمية الثانية وهى قلعة الرأسمالية في ذلك الوقت أممت البنك المركزى " بنك أوف إنجلترا " وديجول بعد تحرير فرنسا أمم البنك المركزى فى فرنسا . هذا بالإضافة إلى أن كل قاموس التأمينات الاجتماعية من تأمينات البطالة وغيرها مقتبس من المعسكر الشرقى ومبادئه .

* ولكننا لا نجد هذا بوضوح فى الولايات المتحدة الأمريكية قلعة الرأسمالية فى العالم ؟

- سأروى لك عن المعركة الانتخابية بين جون كنيدى وريتشارد نيكسون التى حضرتها بالصدفة أثناء وجودى هناك عام ١٩٦٠ ، وكانت أول زيارة لى لأمريكا ، وطبعا تركت البرنامج المعد لجولة بين الولايات عندما عرفت أن المعركة الانتخابية المهمة بدأت بالفعل ، وكان لى صديق كاتب صحافى شهير هو تير سونسير (كاتب أشهر خطب كنيدى وكلماته

المأثورة) وشقيقه جورج سونسير الذى كان مستشاراً صحفياً فى مصر . وعن طريق هذا الصديق استطعت أن أحضر جلسات الكونجرس .

فى هذه الأيام شاهدت كنيدى المرشح الديمقراطى وكيف انتهز فرصة آخر اجتماعات الكونجرس لكى يعلن فيها برنامجه الانتخابى ليس من أجل أن يمرر بنوده فى صورة وعود انتخابية ، بل لكى تصدر فى صورة قوانين .

واستمعت للمرة الأولى فى أمريكا إلى لغة جديدة فيها الحد الأدنى للأجور ، وهذا طبعاً ليس له أى علاقة بالرأسمالية ، وتابعت كيف حورب هذا القانون فى الكونجرس ، وكيف تصدت له " جماعات الضغط " و " اللوبى " المعبر عن كل فئة أو جماعة مصالح . وكانت دهشتى كبيرة عندما لاحظت أن أكبر مقاومة لهذا القانون كانت من أصحاب الفنادق والمقاهى والمطاعم . فسألت باستغراب عن السبب فقد اعتقدت أن المقاومة ستكون من أصحاب المصانع الكبيرة للسيارات التى ستضار بهذا القانون ولكنهم شرحوا لى السبب وهو أن هذا القطاع ، قطاع الفنادق والمطاعم ، يشغل الطلبة فى الأجازات أو فى أوقات فراغهم وهؤلاء يعتبرون العمل شيئا يزيد من دخلهم ولكنهم لا يعتمدون عليه ، بالإضافة إلى أن هذا القطاع يضم أكبر عدد من العمال بخلاف مصانع الصناعات الكبرى مثل السيارات أو الأسلحة أو غيرها . لقد رأيت هذه المعركة التى شهدت جدلاً طويلاً وعنيفا ، وكان نيكسون يكرر عبارته الشهيرة " إن رئاسة الجمهورية تحتاج إلى الشعيرات البيضاء " أى إلى الحكمة وعدم التهور الذى يتصف به الشباب ، وكان يقصد كنيدى وعلى الرغم من ذلك استطاع كنيدى أن يدخل قانون الحد الأدنى للأجور وهو قانون ينسف المبادئ الرأسمالية القائمة على العرض والطلب .

* كيف ترى توازن القوى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتى مستقبلاً ؟

– فى الحقيقة أنا أعتقد أنه لو كان هناك عصر قوتين عظميين فنحن نعيش بقاياه . فمنذ بضع سنوات أصبح الفكر السياسى العالمى يتجه إلى عصر تعدد مراكز القوى وليس انقسام القوى ، لأن مستقبل العالم أصبح لا يحتمل وجود قوتين فقط ، وهذا تراه كل يوم . فالمعسكر الغربى ملئ بالخلافات والمعسكر الشرقى وصل إلى أن يهدم سور برلين ، ولم تعد هناك السيطرة المباشرة للدولة القائدة (العظمى) على دول معسكرها . وصاحب

نظرية تعدد مراكز الزعامة فى العالم هو ديجول ، عندما خرج من حلف الأطلسى ليس حبا فى المعسكر الشرقى ، بل رغبة فى التكافؤ مع روسيا ، ومع أمريكا ، وكانت فكرته ألا يحكم أوروبا لا الروس ولا الأمريكان .

ولذلك فقد بذلت أمريكا جهودا جبارة لمنع ديجول من صنع القنبلة الذرية الفرنسية ، وقوبل بمعارضة حتى من التيارات اليسارية داخل فرنسا نفسها ، وكانوا يرون أنه نوع من الحمق أن تنفق فرنسا ملايين الفرنكات على السلاح وهى لن تصل بحال من الأحوال إلى مستوى روسيا أو أمريكا . وكان تبريرهم لهذه المعارضة أن اليابان نفسها وفرت على نفسها النفقات التى كانت ستضيع فى التسليح ورضيت بحماية أمريكا وبالتالى انطلقت فى تقدمها الهائل فى مجالات العلم والتكنولوجيا .

ولكن ديجول كان له رأى آخر ، وهو أن أوروبا تستحق أن يكون لها رأى فى العالم ، وأنها ممثل لحضارة إنسانية قديمة وكان رأيه أن أمريكا لن تحارب من أجل أوروبا . وعندما ظهرت فى سوق السلاح صواريخ عابرة للقارات أيقن ديجول أنه لو قامت حرب عالمية ثالثة فلن يكفى روسيا أن تضرب ألمانيا وفرنسا ، بل ستضرب أمريكا نفسها .

كان ديجول أول من تكلم عن توحيد أوروبا من الأورال إلى المحيط الأطلسى . وانقلبت الدنيا وقتها واليوم تسير أوروبا إلى ما تحدث عنه وتحطم سور برلين الذى لم يكن أحد يجرؤ على الاقتراب من حجر فيه ، تحطم دون أن يتعرض شرطى لأحد الذين حطموه !

* أين العالم العربى فى خريطة العالم الجديد ؟

- دعينى أقول لك بصراحة ما أريد أن أقوله من زمان ، وهو أن عندنا ما نسميه أو أسميه " حزب القرود " ، وهذا الحزب ليس موجوداً داخل اتجاه بعينه أو تيار معين ، بل نجده فى كل أحزابنا السياسية .

هذا الحزب مغرم بالتقليد الأعمى ، يقرأ أن مسز تاتشر قررت أن تقوم بتغييرات اقتصادية وسرحت العمال وأغلقت المصانع ، فنجرى لنعمل مثلها كى تكون كإنكلترا ! ونسمع أن كوريا عملت إجراءً آخر ، فنقلدها ، أو نسمع أن تركيا اتخذت إجراءات كى تعالج اقتصادها فنجرى لنعمل نفس الذى عملته . بالطبع هذا شئ غريب لأن ما يصلح لبلد ليس بالضرورة يصلح لبلد

آخر ، فلكل بلد ظروفه وهناك عوامل متداخلة للتقدم أو لعلاج الأزمات .

وقد لا يعلم الكثيرون أن كوريا الجنوبية مثلاً .. التى انطلقت اقتصاديا كان الأساس فى نهضتها الصناعية هو القطاع العام ، وأنه كانت عندهم ديكتاتورية أتعس من أى ديكتاتورية .

وربما يعجب المواطن العادى عندما يعرف أن ثلثى الإنتاج الصناعى فى كوريا هو إنتاج القطاع العام ، ولكن الفارق الوحيد أنهم أنشئوا القطاع العام فى كوريا بشكل علمى وليس على أساس أيديولوچى كما فعلنا نحن .

و " حزب القرود " هذا يأخذ العناوين فقط ولا ينظر لعشرات الأسباب التى أدت إلى تقدم بلد من البلاد ، فهناك أسباب تتعلق بالتاريخ والجغرافيا والقيم السائدة وغيرها . أنا فقط أريد أن نفهم ما يحدث فى العالم ليس بأفكارنا المسبقة وتصنيفاتنا الجامدة عن فكر يمينى وفكر يسارى ، لكننى أرى أن التاريخ أقوى من هذا كله ، وبالتالى يجب أن نتابع التطور ونتأمله بدقة ، ولا نندفع وراء موضة بسرعة ، فالعالم كله تغير خلال العشر سنوات الماضية بشكل لم يحدث فى مئات السنين السابقة .

النقطة الثانية التى يجب أن ننتبه إليها أنه لا يمكن أن يتقدم بلد فى مجال دون أن يتقدم فى سائر المجالات الأخرى ومن يقول غير ذلك فإنما يقرأ الأمور بسطحية ولا يعمل على معرفة حقيقية لطبيعة الأشياء .

فأنا لا زلت أذكر حتى الآن قصة صحافى يابانى ، كان يعمل فى الخمسينات كمستشار صحافى بسفارة اليابان فى القاهرة ، تعجبت عندما رأيته ملتحقاً بمدرسة المنيرة الثانوية ، وسألته عن السبب ، فقال أنه يريد أن يتقن اللغة العربية ، فقلت له : لماذا لم تتعلمها فى أحد المراكز الثقافية الكثيرة الموجودة فى القاهرة ، فقال لى ، إن المطلوب أن أتقن اللغة العربية لأترجم أى نص عربى بإجادة تامة .

والغريب أننى عرفت أنه سوف يلتحق بعد ذلك بكلية الآداب ، والسبب فى هذه الدراسة الطويلة هو أنه مطلوب أن يقوم بترجمة مقدمة ابن خلدون عن النص العربى إلى اللغة اليابانية .

مقدمة ابن خلدون موجودة باللغة الإنجليزية وباللغة الفرنسية التى يجيدها الكثير من

اليابانيين ، فلماذا يضيع إنسان ١٢ عاما من عمره لدراسة اللغة العربية وإتقانها بهدف ترجمة مقدمة ابن خلدون عن الأصل العربي ؟ !

ولفت نظرى أنه فى تلك الفترة كانت اليابان تنموا نمواً صناعياً وأدركت أن اليابان ليس منكبة على العمل فى المعمل وإنتاج الترانزستور (أول الصناعات اليابانية) لكن المجهود المبذول فى العلوم الإنسانية والاجتماعية متواز ولا يقل فى الإنفاق والتركيز والاهتمام عن المجهود العلمى المبذول فى التقدم التكنولوچى .

وهذا المثل أسترشد به لأننى انتبهت وقتها إلى حقيقة مهمة وهى أن التقدم لا يقوم فى بلد فى اتجاه واحد . ولا يمكن أن تقوم نهضة دولة على قدم واحدة بينما تعرج على القدم الأخرى لأنها قصيرة .

النقطة الثالثة تتعلق بالقيم السائدة فى المجتمع ودرجة الفهم أو الحد الادنى من الاتفاق ، فعندما تكون القيم السائدة فى مجتمع ما متشابهة يستطيع هذا المجتمع أن يتقدم بخطوات أسرع ، ولكننا بكل أسف فى مجتمع يعيش فيه الناس فى قرون مختلفة . تصورى أن هناك من بين كتابنا المثقفين من ينادى بعودة الإمبراطورية العثمانية لأنها كانت تطبق الشريعة الإسلامية . طبعاً هذا افتراء ، ولا أساس له من الصحة ، فالإمبراطورية العثمانية كانت ناجحة بالمعنى الاستعمارى المحض وفى قدرتها على امتصاص دماء الشعوب والعمل على تأخيرها . ولسنا فى حاجة إلى أن نضرب أمثلة لحكم الأتراك للمنطقة العربية ، ولكنها ليست على كل حال من الإسلام فى شئ فالإسلام لا يدعو إلى القهر ، والمسلمون كانوا يسمون " الفتح الإسلامى " باسم فتح لكى يتميز عن الاستعمار لأنه يفتح الأمصار ، ويقدم من القيم ما يجعل هذه الأمصار تسلم .

وأتعجب وأنا أتابع هذه الكتابات ونجد ان الإمبراطورية العثمانية التى ينادون بعودتها كانت ناجحة فى النظم الانكشارية ، متجاهلة جوهر قيم الإسلام من عدل وشورى وحماية حقوق الانسان !

وهذا ما أعنيه عندما أقول أنه ليست لدينا درجة من التوافق أو الانسجام فى القيم السائدة فى المجتمع . وهذا يعنى أنه ليس لدينا القماش الواحد أو النسيج الواحد اللازم لانطلاق أى مجتمع لتحقيق تنميته وتطوره . وهذه هى الشروط المعنوية للتقدم .

والمطلوب الآن أن نكف عن مناقشة قضايا استهلكت وننطلق لنحقق أهدافاً محددة بدلاً من هذا الهراء .

* ماذا عن فلسطين ؟

– فى أعقاب هزيمة ٦٧ مباشرة كتبت فى مجلة " المصور " سلسلة مقالات بعنوان " مطلوب إقامة دولة فلسطين " ، والتى أعاد بعدها كل إنسان تفكيره بشكل أو بآخر ، وأنا قمت بعد الهزيمة بجولة فى العالم العربى لكى أستشف الموقف و أسمع ، واستقر فى ذهنى أن قيام دولة فلسطينية هو الحل الممكن ، وكان هو التطبيق العلمى الممكن من وجهة نظرى للشعار الذى أطلق فى ذلك الوقت وهو " إزالة آثار العدوان " أى العودة إلى حدود ٦٧ بالإضافة إلى تكوين نواة دولة فلسطين .

وبدأت كتابة السلسلة التى طلب منى الرئيس جمال عبد الناصر إيقافها على أساس أنه لا يريد أن يفهم القارئ العربى أن ما أكتبه فى " المصور " موحى به من مصر .

وأنا علاقتى بالفلسطينيين قديمة ، أعرف كل قياداتهم ، وأعلم كيف يفكرون من خلال مناقشات مستمرة معهم وهم يعلمون أيضا أننى أعبر عن رأيى الشخصى .

لكن مضى وقت طويل فى شعارات غير قابلة للتحقيق ، وأعود فأقول إن الأفكار مهمة فى تاريخ الإنسانية والبشر والثورات ، ولكن ليس كل وقت ، مناسبا لها ، ولابد أن تنضجها الظروف حتى يصبح بالإمكان تحقيقها .

وكما قال ديجول فى إحدى عباراته التى أستشهد بها دائماً : " أحيانا يكون واجب الجندى أن يقف مكانه لا يتحرك حتى الموت ، وأحياناً يكون واجبه أن يعيش حتى يتمكن من أن يقاتل فى يوم آخر فى ظروف أفضل "

كامل الشناوى

أنا صحفى ، هوايتى الأدب ، أو أديب هوايته الصحافة .. وأحـاول أن أؤدى واجبى ككاتب وشاعر .. وهدفى فى الحياة أن أعمق فى الإنسان شعوره نحو الناس ، وأن أجعل الحياة جميلة ، وأن أعبر عن أملى وأمل الإنسانية بصدق وحرارة .. وأن أعبر أيضاً عن الألم بكلمة أو أغنية ، وحياتنا هى آمال وآلام ، انتصـارات وهزائم ابتسـامات ودموع .. وهذه هى حقيقة الحيـاة وسرها وجاذبيتها .

كامل الشناوى



كامل الشناوى

أوراق من حياة كامل الشناوى

- عاش للحب .. ووصفه بأنه عذاب جميل
- القصة الباكية لأعظم قصيدة كتبها « لاتكذبى »
- طفولة حزينة فى قرية « نوسا البحر » ودراسة فى الأزهر
- قال عنه البندارى : شاعر أنيق بقلب مشرد !

الورقة الأولى

طفولـة حزينـة .. مقيـدة ظلت ذكرى محفوره فى وجدانه إلى اليوم الأخير له فى الدنيا . جاء إلـى الحـياة فى ٧ ديسمبر عام ١٩٠٨ - أى أنه من مواليد برج القوس - وشهدت قرية " نوسا البحر " بمحافظة الدقهلية هذا الميلاد الذى أحدث ضجه فى العائلة وبين المعارف وقتها .. لماذا ؟

لأن المـولـود ضـخـم الجـثـة .. بدين .. لذلك أخـفـتـه أمـه عن عـيـون الناس خـوفـاً من الحسـد .. ولم تكن تدرى أن هذا الجسد الضخم .. البدين سوف يكون محور المعاناة والسبب فى آلام نفسية لم تبرح هذا الجسد البدين الذى شاء قدره أن يحمل بين أحشائه قلباً يفيض بالرقة والشفافية والشاعرية والحب !

وانزوى الصغير بعد مشاكل كثيرة شبت بينه وبين الأطفال فى الشارع بسبب اختلافه الشديد عنهم . فأقنعه والداه بالتزام البيت وقضاء وقته فى القراءة ، ثم قرر أن يدرس فى المنزل وحفظ القرآن الكريم كله .. ثم دخل الأزهر بعد ذلك .

ويقول يوسف الشريف مؤلف كتاب " كامل الشناوى .. آخر ظرفاء ذلك الزمان " : عاش كامل الشناوى طفولته وصباه أشبه بجزيرة ثقافية ودينية مغلقة على نفسها ، بينما حوله ستة من الأشقاء منطلقين فى عوالم الرياضة والقوة والرشاقة بينهم مأمون الصحفى والشاعر يمارس حمل الأثقال ، وعبد الفتاح ملاكم ولاعب كرة وحامل أثقال أيضا ، وعبد الرحيم أصبح فيما بعد حارس مرمى نادى الترسانة وأحمد ملاكم . أما هو فقد أعجزه تكوينـه الجسمانـى المترهل عن المشاركة فى أى من هذه الرياضات ، اللهم إجادة لعب الطاولة والورق ، وعندما ألح عليه إخوته ذات يوم أن يتعلم ركوب الدراجة ، وافقهم على مضض ، ولكن العجلاتى لم يوافق بعد أن تأمل بدانة الزبون . !

كان أبوه قاضياً شرعياً تنقل كثيراً فى بلاد الدلتا والصعيد ولم يكن كامل يحب أن يتنقل معه إلى أن نقل أبوه إلى القاهرة كنائب رئيس المحكمه العليا الشرعية فاستقرت الأسرة كلها فى السيدة زينب .. وكان كامل يحب قريته " نوسا البحر " خاصة بعد أن توثقت علاقاته بعدد من الشباب المحب للمعرفة والأدب ، وكان من بينهم الدكتور إبراهيم ناجى - شاعر الأطلال - وعلى محمود طه - شاعر الجندول - وصالح جودت ومحمد التابعى والهمشرى .

الورقة الثانية

ضاق الفتى المقبل على الشباب – كامل الشناوى – بالدراسة فى الأزهر بعد ٣ سنوات قضاها به واعتكف فى بيته يتلقى بعض الدروس الفرنسية استعداداً للسفر إلى فرنسا . ولكن الظروف منعت تحقيق هذا الأمل ..

وبدأ يعلم نفسه .. وجد فى كتب والده وفى دار الكتب وما كان يشتريه منهلاً كبيراً ، وعشق الأدب فحفظ أكثر دواوين الشعراء القدامى والمحدثين .

ثم بدأ عهده بالصحافة عام ١٩٣٠ مصححاً ومحرراً فى جريدة " كوكب الشرق " ثم انتقل منها إلى جريدة " الوادى " وكان يرأس تحريرها طه حسين ، ومنها إلى روزاليوسف اليومية ثم " الأهرام " ثم "دار الهلال " ثم رئيس تحرير لآخر ساعة ثم استقال ليساهم فى إصدار الجريدة المسائية ، ولما أغلقت عاد إلى الأهرام ومنها إلى " أخبار اليوم " ثم استقر به المقام رئيساً لتحرير الجمهورية حتى عام ١٩٦١ .

ورقة .. بين الأوراق

وهى ورقة من كتاب الحياة العريضة التى عاشها شاعر الحب المُفرد .. قصاصة عمرها الآن ٢٩ عاماً باليوم .. فقد نشر هذا الحديث معه بمجلة أسبوعية فى ٢٨ نوفمبر ١٩٦١

* من أنت ؟

– لقد خطر لى هذا السؤال من قبل .. وأودعته إحدى قصائدى وقلت :

أنا .. من أنا ؟ أنا من أكون ؟ وسيلة ؟! أم غاية ؟! أنا لست أعرف من أنا !!

* هذه إجابه فلسفيه .. ولكن أسألك بكل بساطة .. أنت مين ؟!

فابتسم وقال :

– أنا صحفى ، هوايتى الأدب ، أو أديب هوايته الصحافة .. وأحاول أن أؤدى واجبى ككاتب وشاعر .. وهدفى فى الحياة أن أعمق فى الإنسان شعوره نحو الناس ، وأن أجعل الحياة

جميلة ، وأن أعبر عن أملي وأمل الإنسانية بصدق وحرارة .. وأن أعبر أيضاً عن الألم بكلمة أو أغنية ، وحياتنا هي آمال وآلام ، انتصارات وهزائم ابتسامات ودموع .. وهذه هي حقيقة الحياة وسرها وجاذبيتها .

* كرجل .. ما الذي يبكيك ؟

- لايبكيني إلا الألم .

* أي أنواع الألم ؟

- الألم العاطفي .. أما الألم العادي كآلام المرض مثلاً فأنا أقدر عليها .

* وما الذي يفرحك ؟

- النجاح .. أنا أفرح بنجاحي في مقال أو قصيدة ، وأفرح للناجحين .. وأذكر أنني انتشيت عندما سمعت نبأ انطلاق جاجارين إلى الفضاء .. وعودته إلى الأرض ، فرحت لنجاحه كما لو كان صديقاً شخصياً لي .. وكلما رأيت إنساناً ناجحاً أحسست بأن آمالي تنمو ..

* ماهي نقطة الضعف عندك ؟

- الحنان والرغبه الملحة في إسعاد الآخرين ولو كلفني ذلك أن أشقى .

* من الإنسان الذي تكرهه ؟

- أنا أحب ولا أحب ، ولكني لا أكره . أحب الإنسان الذكي ولا أحب الإنسان الغبي ، وأعتقد أن الخير وكل فضيلة طيبة تسند إلى الذكاء .. وأن الشر وكل رذيلة كالحقد والكراهية والحسد لا تنبع إلا من الغباء . لهذا أحب الأذكياء ولا أحب الأغبياء . أما الوسط ، أي الذي ليس غبياً ولا ذكياً ، والذي ليس جاهلاً ولا مثقفاً ، فهذا لا ينزل لي من زور ، فأنا لا أبلع الأنصاف .. لأنهم بلا شخصية .

* لماذا لم تتزوج ؟

- إن عدم زواجي له سببان .. السبب الأول فلسفتي الخاصة . وهي أنني مشكلة لم تحل حتى

الآن .. وكما قلت من قبل ، ماهى الحياة من أين وإلى أين نمضى ، إننى مشكلة وليس من المعقول أن أتزوج وأتسبب فى خلق إنسان منى فكأننى بدلاً من أن أحل مشكلة نفسى أوجدت للدنيا مشكلة أو مشاكل جديدة .. والسبب الثانى هو الصحافة .. فقد كانت " الصحافة " على أيامنا مشقة وعدم استقرار ، والصحفى مهدد بالتعطل والجوع .. فكيف كنت أقوى على تشريد أطفال وزوجة معى ؟!

* هل يمكن أن تخبرنى من هى أول امرأة فى حياتك ؟

- ليس ذلك من حقى .

* وآخر امرأة فى حياتك ؟

- وهذا أيضاً ليس من حقى .

* ما الحب فى رأيك ؟

- الحب عذاب جميل .

* ما أجمل مافيه ؟

- الوهم .

* وأقبح مافيه ؟

- الحقيقة .

ورقة مكتوبة بالدموع

- لا تكذبى ..

إنى رأيتكما معاً

ودعى البكاء

فقد كرهت الأدمعا

ما أهون الدمع الجسور إذا جرى

من عينٍ كاذبة

فأنكر وادعى !!

إنى رأيتكما

إنى سمعتكما

عيناكِ فى عينيه

فى شفتيه

فى كفيه

فى قدميه ،

ويداكِ ضارعتان

ترتعشان من لهفٍ عليه !

إلى أن يقول بدموع قلبه :

كونى كما تبغين

لكن لن تكونى .. !!

فأنا صنعتكِ من هواى . ومن جنونى .. !!

ولقد برئت من الهوى ومن الجنونِ .. !!

هذه القصيدة كتبها كامل الشناوى فى بيت الأستاذ مصطفى أمين . ويقول

الأستاذ مصطفى إن كامل الشناوى كان يكتبها وهو يبكى بحرارة وعندما انتهى من كتابتها توجه إلى التليفون ليقرأها إلى الفنانة المشهورة التى كتبها من أجلها . وكان الأستاذ مصطفى أمين والموسيقار محمد عبد الوهاب معه فى هذه الليلة يستمعان إلى الحديث من السماعة الأخرى فى غرفة النوم .

وبعد أن قرأ كامل الشناوى القصيدة للفنانة التى أحبها كما لم يحب امرأة فى حياته .. وكانت الدموع تملأ وجهه .. فوجئ بها ترد عليه ببرود وجمود .. وتقول له : عظيمه جداً .. ممكن أغنيها يا كامل ؟!!

وقصيدة " لاتكذبى " أثارت من الحكايات والتفسيرات مالم تثره قصيدة أخرى فى حياة كامل الشناوى ، أو ربما حياة شاعر فهذه رؤية واحد من كبار الكتاب وأقدرهم وأقربهم إلى كامل الشناوى لقصة الحب الشهيرة بين الشاعر الرقيق والفنانة المشهورة ..

كتب جلال البندارى فى أخبار اليوم فى أغسطس ١٩٦٨ يقول :

أصبحت نجاة الصغيره فجأة وبلا مقدمات .. قطعة منى !

إننى لم أرها منذ أكثر من ستة شهور وربما سنة ، ولم يحاول أحدنا أن يسأل عن الآخر بالتليفون ، ولكن نجاة التى كانت صديقتى اللدودة ، أصبحت الحميمة !

كنا لانلتقى إلا فى ساحات المحاكم وأمام القضاء ، فأصبحنا نلتقى فى بيوتنا وبين أولادنا لنضحك ونسخر من الأيام التى لم يكن أحدنا يفهم فيها الآخر .. فما الذى جعل العداء المستحكم يتحولّ إلى صداقة عظيمة ؟

كان الشاعر الفنان الإنسان كامل الشناوى لا يطيق كلمة منى أو من أى كاتب أو صحفى تغضب نجاة ! وبالرغم من صداقتنا القوية - أنا وكامل الشناوى - فقد قرأ مقالاً وجدنى أتعرض فيه لنجاة فرفع بنفسه دعوى ضدى !

كان يحبها حباً عظيماً .. وكنا نحن الصحفيين نعلم أن هذا الحب من طرف واحد فقط ولكنه كان يخلق لنفسه عالماً من الوهم والخيال ، وكان يحب الكثيرات .. كان يحب نادية لطفى وسعاد حسنى وثلاث مذيعات جميلات فى التليفزيون . ولكن حبه الكبير .. حبه الذى

استغرق منه ديواناً من الشعر .. حبه الذى صوره فى تجربته العاطفيه الشهيرة باسم " لاتكذبى " هو حبه لنجاة !

وانتقل كامل الشناوى إلى الحياة الأخرى .. وقبل أن يذهب بأسابيع وصفها لى وصفاً دقيقاً .. ولاحظنا نحن الذين نعرف علاقة الصداقة القوية المتينة بين كامل الشناوى ونجاة .. أن نجاة لم تحزن من أجل فراقه ولم يبد عليها أنها حتى تأثرت كقارئة من قارئات الكاتب والشاعر العظيم !

إذا كانت علاقة كامل الشناوى بنجاة وهماً فقد كانت علاقة نجاة بكامل الشناوى حقيقة !

كان هو يحبها كما يحب الشعراء الأوهام والليل والنجوم بعيدة المنال ! وكانت هى تنظر إليه كأعز صديق ظهر في حياتها ! وكانت تعلم أنه يغار عليها من هبّات النسيم ! وبعد ستة شهور من رحيل كامل الشناوى رأيت نجاة تزورنى وتجلس أمامى وتنفجر بالبكاء ! وأحسست لحظتها بأن كامل الشناوى الذى لم يستطع أن يخلق منا صديقين وهو على قيد الحياة ، قد استطاع أن يفعل ذلك بعد وفاته ! وأخذت نجاة تسألنى ..

أين كامل الشناوى ، أين كامل الشناوى ؟!

ثم أخذت تروى لى قصة كامل الشناوى معها من وجهة نظرها ، ولكن .. أين ذلك الشاعر المرهف الذى يستطيع أن يروى على لسانها قصة من أخلد قصص الحب والغرام .. لقد كان كامل الشناوى على استعداد لأن يدفع نصف عمره فى نظير أن يستمع إلى رأى نجاة فيه .. ويرى دموعها من أجله ! حقاً لقد كان كامل الشناوى شاعراً أنيقاً يعيش بقلب مشرد .

ورقة من أوراق العقل

وهى ورقة من أوراق الكاتب الصحفي الكبير صلاح حافظ كتبها عن كامل الشناوى .. قال : لا أكاد أعرف أديباً أو فناناً من جيلنا الحاضر غير مدين لكامل الشناوى !

لا أقصد بهذا الدين الثقافى وحده ، وإنما أقصد الدين بمعناه المادى أيضاً .. فقد كان كامل الشناوى حين يرعى موهبة جديدة يتحمل عنها جميع همومها : يشترى الكتب للأديب الناشئ ، يصحب الفنان إلى الترزى يفصل له ثياباً أفضل . يخصص حجرة فى بيته لإقامة

الشاعر الذى ليس له بيت ، ينشر للكاتب الجديد فى الصحيفة التى يعمل بها ويدفع له من جيبه دون أن يخبره بذلك .

ولم يكن كامل الشناوى يكتفى بهذا ، وإنما كان يعتبر رسالة حياته إرغام الدنيا كلها على الالتفاف للموهبة التى تحمس لها .. فلا يترك سهرة ، أو حديثاً ، أو اجتماعاً ، إلا ويحوله إلى فرصة دعائية لصاحب الموهبة .. ويكاد يقنع الجميع بأن الله لم يخلق مثله ، ويبالغ إلى حد أن يسجل بصوته قصيدة شاب مجهول ، لكى يُسمعها لزواره كل يوم ، ويفرض عليهم أن يحفظوا اسمه ، فإذا ما لمع هذا الاسم وبدأ صاحبه يشق الطريق مستقلاً ، تحول عنه .. وتفرغ لموهبة جديدة !

وكان السبب موقفه الفريد من الأدب والفن .. كان يعشقهما لذاتيهما .. لا يحب شعره ، وإنما يحب الشعر ، لا يتذوق أدبه ، وإنما يتذوق الأدب ، لا يسعد بتفوق فنه فى الكتابة ، وإنما يسعد بتفوق فن الكتابة ، وليس فى التاريخ أديب أو فنان تجرد من الأنانية مثله ، كأنه فى محراب الفن اختار دور العابد لا دور الكاهن ، وكأنما اختار سماء الأدب ، لا لكى يلمع هو فيها ، ولكن لكى يجملها بأكبر عدد من النجوم التى تزيد من رونقها ! ولا جدال فى أن كامل الشناوى قد دفع غالياً ثمن هذا الموقف الصوفى فى عالم الثقافة .

فهو يوم مات لم يكن له فى الأسواق غير ديوان شعر واحد " لاتكذبى " .. بينما كانت تغمر الأسواق مئات الدواوين التى أُخذت عنه ، ونسجت على منوال أسلوبه وشق أصحابها الطريق بفضل رعايته .

ويوم مات كان عدد كبير من كتاب القصة ، والرواية ، والمقال ، وكتاب الصحافة يملئون أسماع العالم العربى وكان هو الذى فتح الطريق أمامهم بينما كانت قصصه ومقالاته مبعثرة فى أربعة أرجاء الصحف المصرية .. لا يكاد يذكرها أحد ..

فكامل الشناوى لم يبذل فى شعره وأدبه غير جزء من طاقته الفنية . أما الجزء الأكبر فقد فضل أن يعيشه . وكانت حياته نفسها من أروع أبيات شعره .. وكان إنتاج الذين رعاهم من أروع سطور أدبه .

فأدب كامل الشناوى ليس الأدب الذى كتبه فقط .. وإنما الأدب الذى عاشه .

ورقة عرفان بالجميل

وهذه الورقة كتبها الكاتب الصحفى الأستاذ موسى صبرى قبل عام واحد من رحيل كامل الشناوى فى ٢٨ أكتوبر عام ١٩٦٤ قال فيها : " إن فى عنق أبناء هذا الجيل من الصحفيين والكتاب لكامل الشناوى ديوناً متراكمة مستحقة الأداء دائماً .. فكيف يستطيع أحمد بهاء الدين وأنيس منصور وفتحى غانم وسعيد. سنبل وصلاح حافظ وكمال الملاخ وعبد الرحمن الشرقاوى ويوسف إدريس ومحمود السعدنى وكل من تصدر الرأى والكلمة والعمل الصحفى فى العشر سنوات الأخيرة .. كيف نستطيع أن ننسى كامل الشناوى ؟ كان دائماً الصدر المفتوح لأفكارنا وإنتاجنا يوم أن كنا ندخل مكاتب كبار الصحفيين بأقدام مرتعشة مترددة .. وأن يد كامل الشناوى دفعتنا من أول الطريق لتوفر علينا كثيراً من المشقة والجهد ؟

إنه يقدم لنا قمم الأحداث فى حياة جمال الدين الأفغانى وغيره من أعلام الشعر والفن والفلسفة والعلم فى تاريخنا .. وكأنه عاش معهم هذه الأحداث .. جالسهم وناقشهم .. انفعل لهم وارتوى بأفكارهم لقد ألغى مقاييس الزمن بخياله ، وسجل حقائق الأحداث بقلمه مستعيناً بقراءته عنهم مستلهماً حكم التاريخ عليهم ..

ولكن كامل الشناوى - كما يعبر هو عن نفسه - شئ حى نابض لايكتمل أبداً .. سمعته كثيراً يقول عن نفسه : أنا لحن ناقص .. أنا مطلع قصيدة .. أنا سطور من قصة ..

وهذا القول فيه دفاع أكثر مما فيه من وصف صادق !

لقد بدأ منذ عشر سنوات بحثاً رائعاً عن الشاعر أبى نواس بهذا الأسلوب الجديد الذى استحدثه وهو يؤرخ حياة جمال الدين الأفغانى .. وقرأنا له من البحث ثلاثة أو أربعة أجزاء .. رأيناه وسمعناه فى ركاب " أبونواس " يروى أيامه وكأنه يشاركه فيها ساعة بساعة .. ثم فجأة توقف القلم فى يده .. وطوى كامل الشناوى صفحات بحثه وكأنه ليس خالقها وصاحبها .. ودفعته شياطينه إلى الخلوة مع قصيدة جديدة .. ولكنه لم يطق صبراً على اعتقال وجدانه بين جدرانها .. فانطلق إلى القصة .. ثم ضاق بأبطالها فحمل حقائبه إلى الإسكندرية يلتقى بالناس والنسيم والبحر .. ثم نراه يعود إلينا فجأة ليفكر فى حديث صحفى من أحاديثه المشهورة .. وهكذا تمضى حياة أستاذنا ! ولولا أصدقاؤه الذين جمعوا كتاباته

المتناثرة المتباعدة عن الأفغانى ومحمود سامى البارودى وعبد الرحمن الكواكبى وقاسم أمين وسيد درويش وإسماعيل صبرى .. ولولا شغف مريديه الذين انتزعوا من قلبه أحاديثه مع أحمد شوقى وأحمد لطفى السيد ومصطفى عبد الرازق وعلى مصطفى مشرفة لما خرج لنا كتاب " لقاء معهم " .

ورقة من أوراق الليل

يحدثنا عنها الكاتب الصحفى صاحب الفضل الكبير فى إخراج الكتاب الوحيد الذى صدر حتى الآن عن سيرة واحد من علامات الشعر والأدب فى مصر .. كامل الشناوى .

يقول يوسف الشريف : على مدى ربع قرن أو يزيد .. كان خلالها نجم ليل القاهره بلا منافس .. ليل الصحافة والأدب والفن . ليل الجلسة الموحية .. ليل الشعر .. وليل النكتة الساخرة والحوارات الذكية والقفشات اللاذعة والمقالب المحبوكة التى لا تنسى .

وكانت صالونات ومقاهى ومنتديات مابعد منتصف الليل دائماً على أهبة انتظاره .. يبث فيها من روحه روحاً ومرحاً ورقة وصخباً . فقد كان محدثاً ومؤانساً من أبرز وأظرف ظرفاء زمانه ! وكانت كلماته كأنها الصحف السيارة .. ما إن يصوغها بوجدانه ويطلقها لسانه حتى تنتقل إلى حيث يريد لها أن تنطلق . وتنتشر وتؤثر فى المليان .

وشهدت الكثير من المقاهى والأندية الليلية والفنادق هذه الأمسيات الجميلة لكامل الشناوى ومريديه . ومنها فندق الهيلتون ، وشبرد وسميراميس ومقهى اللواء ومطعم الباريزيانا بشارع الألفى وغيرها .

ورقة من أوراقه عن الليل

ياليل .. حذار أن تتخلى عنى .. كن معى .. تشبث بوجودك .. لا تدع فجر الغد يتسلل إليك ويطويك .. قاومه .. مزق خيوط شمسه قبل أن تشرق .. فأنا لا أستطيع أن أواجه هذا الغد الذى سترحل فيه عنى من عجزت أن أحبها ، وعجزت عن أن أنساها !

إنها كلما اقتربت منى .. ألهبتنى ، وإذا ذهبت إلى مكان بعيد .. أحرقتنى لا أريد أن أحترق ، اللهب يكفى .. فقف مكانك ياليل ، لاتدر مع الأرض حتى لا يجئ يوم الوداع الذى ليس من حقى أن أقول لها فيه كلمة وداع !

أيها الغد .. ليتك تضل طريقك إلينا ولا تجئ أبداً !

(ساعات : كامل الشناوى)

ومن أوراق العشق

بهرتنى وهى تمشى بيننا ، القوام كالسيف ممشوق ورقيق . الشعر الأشقر كخيوط الشمس لاينسدل على جبهتها ، ولكن يدنو منها ويلثمها . العينان الزرقاوان ، يلمع منهما ضوء خاطف كشعاع تخلصت منه نجمة وهى تهرب فى طيات السحاب !

الخدان نابضان برعشة حمراء ناضرة ، يفصل بينهما أنف صغير . ولكنه مهيب . كأنما يحاول بمهابته أن يمنع أحد الخدين من التهام الآخر !

الفم يباهى بشفتيه المكتنزتين بلباقة .. وقد بدا باستدارته ، وحمرته ، ورقته ، أشبه بكأس مصنوعة من قُبلة وابتسامة !

العنق الجميل يتحرك كالزهو ، وسكن كالكبرياء . والذقن حلو أنيف ، تزينه غمزة مبهمة .. ظننتها توقيع الله !

ومن أوراق .. الصحفى

" لاتحذروا منى " كان هذا عنوان يوميات كتبها كامل الشناوى فى جريدة " الأخبار " فى مايو ١٩٥٥ كتبها رداً على يوميات الأستاذ محمد التابعى التى كتبها عنه .

قال كامل الشناوى : فاجأنى اليوم صديقى الأستاذ محمد التابعى بكلمة فى يوميات " الأخبار " تحت عنوان " احذروا كامل الشناوى " ولولا أن كاتب الكلمة هو محمد التابعى لخشيت أن يكتفى بعض القراء بقراءة العنوان ويفهموا منه أنه مجرد تحذير من معاملتى !

ولكن أين هو القارئ الذى يقف من مقال يكتبه التابعى عند عنوان المقال ، أو نصف المقال ؟! بل أين هو القارئ الذى يقنع بقراءة كل سطر يكتبه التابعى ولايتجاوز ذلك إلى قراءة ماوراء السطور وما بين السطور ؟

ولقد خرجت من كلمة التابعى بما أخجل تواضعى .. فقد رمانى بصفات لا أعرفها فى نفسى من بينها الدهاء وسعة الحيلة " والدحلبة " ونصب الشباك والفخاخ للساسة والأدباء ورجال الدين إلى آخره ، لكى يدلوا بأحاديث وصفها بأنها أحدثت ضجة ودوياً ، وضرب لذلك أمثلة أحاديثى مع حافظ عفيفى ونجيب الهلالى وطه حسين وأخيراً حديثى مع الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر ! وتطرق الحديث من هذا إلى مهاجمة الأستاذ الأكبر لأنه نادى فى هذا الحديث بتعدد الزوجات !

وقد أشفقت على شيخ الأزهر من هجوم التابعى عليه ، فالشيخ رقيق نحيل واهن العظم ، واهن القوى . وقلم التابعى مرهف حاد ، عات كالعاصفة .. قاس كالحريق .. وقد وصف حديث شيخ الأزهر بأنه فضيحة وأن العالم سيقول إن المسلمين أمة من الحيوانات ، ولن يعزينا أننا حيوانات فحول !

وأراد التابعى أن يحملنى مسئولية استدراج الشيخ إلى إبداء هذا الرأى وكنت أود أن أتحمل المسئولية ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، فإنى لم أستدرج الشيخ ، ولم أفاجئه بسؤالى عن رأيه فى تعدد الزوجات ، بل الذى حدث أنى ناقشته فى هذا الموضوع ، وأنا من القائلين بتحريم التعدد طبقاً لما فهمته من نصوص الآيات القرآنية الكريمة .

وكنت أظن أن الشيخ سيوافقنى على التحريم ، وإذا به يفيض فى تبرير تعدد الزوجات . ولما نبهته إلى خطورة هذا الرأى قال : هذا رأى الإسلام وقد سجلته فى كتاب .. واسم هذا الكتاب " أحكام الأحوال الشخصية فى الشريعة الإسلامية " .

ولعل هذا التفسير يقنع الأستاذ التابعى بأنى لم أنصب للشيخ الأكبر فخاً ولا شركاً .

أما الأحاديث الأخرى فلا يتسع المجال لشرح تاريخ كل حديث منها ، وما أحاط بها من ملابسات وظروف . وسيتأكد التابعى من أنى لا أستدرج ولا " أسحلب " ولا آخذ على غرة .. سيتأكد من ذلك إذا ماعلم أن بعض هذه الأحاديث استغرق إعداده شهرين مثل حديث حافظ عفيفى .

إن ماكتبه التابعى عن طريقتى فى انتزاع الأحاديث تحية سأعتز بها مدى الحياة . حياتى الصحفية على الأقل .!!

وورقة الشقيق

أما شقيقه الشاعر والكاتب الصحفى مأمون الشناوى فقد كتب فى مقدمة ديوانه " لاتكذبى " فقال :

لو أردنا أن نسجل حياة كامل الشناوى العاطفية بصدق وأمانة لما وجدنا إلا وسيلة واحدة ، وهى أن نرتب قصائده ترتيباً زمنياً لنخرج من شعره فى النهاية بأكثر من قصة حب .

قد نجد فى البيت الواحد قصة حب طويلة .. وقد نجد فى القصيدة الطويلة قصة حب قصيرة ، وكل ماسكبه كامل الشناوى من شعر يحس قارئه أو مستمعه أنه نبع من قلب الشاعر ليستقر فى قلوب الناس .. وتلك هى أشعة الإلهام التى يهبها الله لمن يشاء من عباده الموهوبين الملهمين .. إنما نحس فى شعر كامل الشناوى صدق العاطفه وطهارة الإنسان المترفع عن الدنايا الحريص على كرامته ألا تُهان أو تُمس ولو بأنامل حبيبته .


أما دموعه وأحزانه فقد كان يسكبها فى شعر .. إيقاعه نبض قلبه ، وكلماته فيض مشاعره وحبره دم فؤاده .

ومضى أكثر من ربع قرن على رحيل الفارس .. فارس الرومانسية طائر الحب المُفرد .. ولاتزال نبضات قلبه المخبؤة فى سطور دواوينه ومشاعره الصادقة النائمة بين أوراقه فى أمان وسلام .. تردد اسمه بكل الحب والعرفان والامتنان .

إحسان عبد القدوس

لأننى رجل .. وأفهم وأشعر بكل ما يشعر به الرجل .. فعندما أعبر بنفس أحاسيس الرجل فليس كل أبطال قصصى من النساء .. ولكن بينهم أيضاً رجال .. وكما أعبر عن النساء أعبر أيضاً عن الرجال .. ومسألة تعمقى فى فهم المرأة نابعة من فهمى لأنها من طبيعة الرجل بمعنى أن كل مايدور فى عقل وأحاسيس الرجل يدور فى عقل وأحاسيس المرأة .

إحسان عبد القدوس



كانت أمنية قديمة ظلت تراودني من حين لآخر .. أن ألتقي بالكاتب الكبير إحسان عبد القدوس وأجرى معه حديثاً صحفياً ..

مرات كثيرة كنت أقابله في مناسبات وأماكن مختلفة .. ولكنى لم أحظ بمتعة الحديث معه والنقاش الشائق حول آرائه ومعتقداته وأفكاره ..

وكان علىّ أن أعد الأسئلة .. والحق كانت كثيرة .. متشعبة .. متفجرة أحياناً .. فالكاتب الكبير ليس أديباً فقط .. وليس محللاً سياسياً له العديد من المواقف الجريئة التى ألقى بسببها فى المعتقلات ، وكان هدفاً لأكثر من محاولة اغتيال فحسب بل هو - علاوة على ذلك - قلم حساس استطاع أن ينقل عبر الورقة والقلم أدق التفاصيل وأخصها ، واشتهر بقدرته الفائقة على وصف مشاعر المرأة وطبائعها .. عواطفها وغرائبها أيضاً ..

لذلك .. ورغم أن الأستاذ الكبير إحسان عبد القدوس كان كريماً معى إلى أقصى حد .. وأعطانى الكثير من وقته .. إلا أننى لم أشعر بأننى حصلت على كل شئ .. فالجلوس مع إحسان عبد القدوس كمطالعة موسوعة ضخمة متنوعة .. غنية فى مادتها .. شائقة ومثيرة فى أسلوب عرضها ..

تطرق حديثى مع الكاتب الكبير إلى قضايا عديدة .. بالطبع كانت على رأس قائمتها المرأة .. وتشعب حوارنا ليشمل آراءه حول المحاور الثلاثة الأساسية فى حياته : " الأدب .. الصحافة .. والسياسة " .. وكان الرابط المشترك الذى يجمع بين كل هذه الحلقات فى سلسلة تفكيره هو البعد الإنسانى العام .

فهو مثلاً - لايرى اختلافاً بين طبيعة المرأة وطبيعة الرجل لأنهما فى النهاية " إنسان " .. ولكل إنسان - بغض النظر عن جنسه - مشاعر وعواطف وردود أفعال متشابهة سواء كان رجلاً أو امرأة .. وهو أيضاً لا يفرق بين الكتابة الأدبية والكتابة السياسية لأنهما ينبثقان من مصدر واحد ، هو إحساسه الطبيعى بالحياة والأحداث من حوله ..

حدثنى عن دور السيدة " روزاليوسف " بالتحديد فى تشكيل فكره وإطلاق حريته فى التعبير عن آرائه بلا حدود ..

وأجابنى عن أسئلة كثيرة حول المرأة باعتباره الكاتب الذى تسلل إلى أعماقها وحسـ أسرارها ..

دافع بحرارة عن نفسه عندما وجهتُ إليه اتهام الناس بأنه لايرسم فى قصصه إلا صورة المرأة الأرستقراطية المتحررة .. وقال إنه كتب عن الطبقة المتوسطة معظم قصصه ..

وتحدث الكاتب الكبير عن معنى السعادة عنده ، فقال إنها الحب .. حب الله والوطن .. وحب الإنسان للإنسان .. وقال إنه مرتبط بإحساس الأسرة طوال حياته .. وإن هذا الارتباط أنقذه من متاعب كثيرة وكان سبباً فى نجاحه ..

وقال إحسان عبد القدوس :

- لم أنجب بناتاً وليس لى حفيدة .. وكان نفسى فى ولو " عبد القدوساوية " واحدة ..

* * *

* سألته فى بداية حوارنا : معروف عن الأستاذ إحسان عبد القدوس فهمه العميق للمرأة .. إلى الحد الذى يمكن وصفه بأنه استطاع أن يُشَرِّح هذه الأعماق وينفذ إلى أدق تفاصيلها
– فكيف تشكل داخل الكاتب الكبير هذا الفهم العميق ؟ وإلى أى العوامل يرجعه ؟ ..

ابتسم ابتسامة طفولية .. أشرق بها وجهه .. كطفل وديع . بدأ حديثه وقد أسند رأسه على كف يده اليمنى .. قال :

– دائماً أواجه بأننى فاهم لمشاعر المرأة وقادر على التعبير عنها .. ولكنى فى الحقيقة لا أعتبر نفسى متخصصاً فى شئون المرأة أو أحاسيسها ، والواقع أننى منذ بدأت تقديراتى الاجتماعية وضعت للمرأة صفة ربما تكون جديدة فى المجتمع العربى .. فأنا منذ بداية تكوين تفكيرى وأنا أعتبر أن المرأة شخصية موازية ومساوية تماماً لشخصية الرجل .. ولا فرق بين رجل وامرأة .. والفرق الوحيد هو الفرق " الفسيولوچى " – أى الجسمانى – بمعنى أن تكوين جسم المرأة مخصص للولادة والإنجاب والرجل لا يحمل ولا ينجب .. أما فى تكوين الشخصية نفسها والقدرة العملية وفقاً للقدرات العامة فلا فرق ولا اختلاف بين المرأة والرجل ..

وأعتقد أن مايفرق بين المرأة والرجل هو التقاليد .. نوع من فرض القوة .. قوة الرجل على المرأة – وبالطبع تتضاءل هذه القوة بين مجتمع وآخر وتختلف اختلافاً كبيراً .. فالمجتمع الأوروبى غير المجتمع الشرقى مثلاً .

ولهذا ولأننى رجل .. وأفهم وأشعر بكل ما يشعر به الرجل .. فعندما أعبر بنفس أحاسيس الرجل فليس كل أبطال قصصى من النساء .. ولكن بينهم أيضاً رجال .. وكما أعبر عن النساء أعبر أيضاً عن الرجال ..

ومسألة تعمقى فى فهم المرأة نابعة من فهمى لأنها من طبيعة الرجل بمعنى أن كل مايدور فى عقل وأحاسيس الرجل يدور فى عقل وأحاسيس المرأة مع اختلاف المسئوليات ..

* تعنى أنك تحكم على كليهما حكماً إنسانياً عاماً ؟

– بالفعل . فأنا أساوى بينهما إلا فى اختلاف مسئولية كل منهما .. والذى

يفرضــه اختــلاف التكويــن الفسيولوچــى " الجسمانى " بين الرجل والمرأة ..

ولكنهما فى مستوى واحد من ناحية تكوين الشخصية والعقل والفكر ومن ناحية التحليل النفسى أيضاً ..

ويستطرد إحسان عبد القدوس قائلاً :

– وكان أول مادفعنى لهذا التفكير أننى ابن لأم كانت تحمل مسئوليات لا تختلف عن مسئوليات رجل أبداً ، وكانت ناجحة جداً فى تحمل هذه المسئوليات كنجاح أى رجل .. فكانت أمى صحفية وأصدرت مجلة " روزاليوسف " – مجلة عمرها الآن أكثر من ستين سنة ومازالت قائمة ومن المجلات العريقة – وكل تكوينها كان قائماً على امرأة وليس رجلاً ..

وهذا ماجعلنى أقتنع تماماً بأنه لافرق على الإطلاق بين الرجل والمرأة مادامت تستطيع أن تنجح فى كل شئ إذا أرادت ..

وهذه القناعة تجعلنى قادراً على تحليل شخصية المرأة دون أن أتأثر بالتقاليد أو بالمظهر الاجتماعى .. وهذا مايفتقده الكثيرون من الكتاب سواء نساء أو رجال .. فهم جميعاً يخافون وهم يكتبون عن وصف حقيقة مايحدث على أساس أن التقاليد لا تسمح بأن نقول كذا أو نقول كذا ..

ولكنى مؤمن بأن الكاتب يجب أن يصف المشاعر الطبيعية فى الموقف الذى يتحدث عنه دون النظر إلى هذه الأمور حتى يكون صادقاً ومقنعاً ..

* وما رأيك فى المثل الشائع الذى يقول " إن وراء كل عظيم امرأة " ؟ ..

– لاشك أن وراء كل عظيم امرأة .. ولكن أحب أن أقول أنه أيضاً وراء كل عظيمة رجل ..

فأنا مثلاً أنسب الفضل الكبير جداً فى نجاحى إلى زوجتى .. وفى نفس الوقت أنسب كل ماتتمتع به زوجتى من سعادة لى .. فأنا وراءها وهى ورائى .. أنا دافع لسعادتها ونجاحها .. وهى دافع لسعادتى ونجاحى ..

* لو تحدثنا عن أهم السيدات اللاتى أثرن فى حياتك بعمق وكانت لهن بصمات واضحة فى حياتك ؟

- أنا أدين لثلاث سيدات بالفضل فى تكوين شخصيتى وانطلاقى فى حياتى الأدبية والصحفية ..

أولهن - لم تكن أمى - .. كانت عمتى .. لأن عمتى هى التى تلقتنى منذ ولدت ، حتى أنها كانت ترضعنى .. وظللت معها حتى سن ١٨ سنة لأن والدى كان منفصلاً عن والدتى .. فتولت عمتى تربيتى .. وكانت طريقتها فى تربيتى هى إفساح كل المجالات لى .. فهى التى فتحت أمامى مجالات كثيرة .. وزرعت داخلى التفكير الحر .. وكانت عمتى تعاملنى بمبدأ أنه لا يجب أن أتعدى الحدود طالما أننى لا أتعداها .. فلى مطلق الحرية فى حياتى مادمت لا أؤذى أحداً.. ولا يؤذينى أحد ..

فمثلاً كان المفروض ألا أعود إلى المنزل بعد التاسعة .. فإذا حافظت على الموعد فلى مطلق الحرية فى وقتى بلا تأنيب أو عقاب .. أما إذا تعديت هذا الموعد فهنا يكون العقاب قاسياً ..

ويكمل الكاتب الكبير حديثه قائلاً :

- أما المرأة الثانية التى كان تأثيرها كبيراً جداً علىّ فكانت والدتى .. فقد كانت سيدة عاملة ونجاحها كان دائماً يبهرنى .. وعن طريق نجاحها تعرفت وعايشت مجتمعات واسعة جداً ، مجتمعات كل رجال السياسة وكل رجال الأدب .. وعن طريق هذه المجتمعات ، كنت أتلقى ثقافتى وتتبلور اهتماماتى التى دفعتنى إلى تكوين مستقبلى ..

ويستطرد إحسان عبد القدوس قائلاً :

- وطبعاً كان أهم شئ فى هذه الفترة هو الاختلاف الشاسع بين عمتى ووالدتى .. فعمتى كانت تمثل التقاليد القديمة .. لا تخرج .. ليس لها مجتمع يضم رجالاً لأن جدى - والدها - كان من رجال الدين وهو الشيخ " أحمد رضوان " .. فكانت متفرغة للبيت .. كأى ست تقليدية .. فى حين أن والدتى كانت فى منتهى الحرية .. وتعمل فى وسط رجالة .. فكنت أذهب إليها فأجدها تجلس وسط عشرة رجالة محمد التابعى والمازنى والعقاد وغيرهم

.. وعمتى لا تجلس إلا مع الستات .. كانت لهن " قعدة " كل يوم أربعاء .. وكنت أجلس بينهن وأستمع إلى كلامهن ..

* رغم أن طفولتك الأولى كانت فى جو متشدد إلا أنك انبهرت بشخصية السيدة "روزاليوسف" التى تمثل النقيض لما نشأت عليه ؟

– لا .. فى الحقيقة أنا واجهت مجتمعين مختلفين وكنت أحب عمتى جداً .. وأحب والدتى جداً .. وهذا ماجعلنى أفكر وأحلل وأتساءل بينى وبين نفسى لماذا تعيش عمتى هذه الحياة وتحيا أمى فى حياة مختلفة تماماً ؟ .. ما الذى خلق هذين المجتمعين المتباعدين داخل بلد واحد ؟.. وربما قادنى هذا التفكير إلى قضية التقدم فى الحياة ككل .. لأن التقدم الاجتماعى هو التقدم فى أى شئ وفى أى مجال .. وكان كل همى كيف أربط بين هذين المجتمعين وأصل إلى مجتمع واحد يجمع والدتى وعمتى ؟ .. هذا ما وجه كل تفكيرى وبنى شخصيتى كمفكر وأديب ..

ويتوقف قليلاً .. ثم يستكمل حديثه قائلاً :

– السيدة الثالثة التى لها فضل علىّ هى زوجتى .. لأنى تزوجت وكنت صغيراً جداً كان عمرى ٢٢ سنة وكنت طالباً بالليسانس .. أول ما تخرجت تزوجتها .. وكنت فى فترة البناء – كأى شاب – وكانت مرحلة عذاب .. وجهاد ضخم جداً .. وتعرضت لمعاناة كبيرة .. كانت زوجتى هى الوحيدة التى وقفت إلى جانبى فى هذه المرحلة الصعبة .. ولولاها لما تخطيتها .. ولا وصلت لما أنا فيه من نجاح الآن .. ولهذا فأنا أعتبر أن فضلها كبير جداً علىّ .

* بطلات رواياتك هل تصف مشاعرهن بإحساس رجل أم بإحساس امرأة ؟

– إذا اقتنعت بما قلت بأن لا اختلاف بين الرجل والمرأة فأنا كرجل أعبر عن شخصية المرأة بشخصيتى أنا .. وتطلع فى النهاية متماثلة .. فإذا تجردنا من التقاليد ونزعة سيطرة الرجل على المرأة فسوف نقول الحقيقة ..

يعنى الناس تفترض مثلاً أن المرأة من الممكن أن تغرى الرجل ويشتهيها ولكن لا تفترض أن المرأة مثل الرجل أيضاً من الممكن أن يغريها رجل وأن تعجب به وتجرى وراءه .. ويقولون " أن التقاليد متسمحش بكده " .. أيوه متسمحش .. بس ده بيحصل فى الواقع ..

يعنى أنا لا أعانى وأنا أصور شخصية امرأة لأنى أعبر عنها بطبيعية شديدة كما أعبر عن شخصية الرجل بالضبط فى حدود إيمانى بخلاف التكوين الجسمانى فقط ..

* هنـاك اتهـام صريـح يقول : إن إحسان عبد القدوس لا يصور إلا المرأة الأرستقراطية أو المـرأة المتـحررة جداً التى لا تمثل المرأة المصـرية التى نعرفـها .. فمـا ردك على هذا الاتهام ؟

– هذا أيضاً من سوء التقدير لما أكتب .. فمعظم قصصى لا تصور المجتمع الأرستقراطى بل مجتمع الطبقة الوسطى وكثير منها يصور المجتمع العمـالى .. وكثير منها يصور المجتمع الفلاحى لأنى عشت مع الفلاحين فى بلدنا .. وكذلك عشت مع العمال فى مطابع الصحف ..

* وحضرتك من أى قرية ؟

– أنا بلدى شبرا اليمن – مركز زفتى – مديرية الغربية .. وكنا نمضى أجازة الصيف كل سنة وأنا صغير فى البلد .. لأن جدى كان يملك خمسة فدادين هناك ..

ويعود إحسان عبد القدوس للرد على الاتهام .. قائلاً :

– ولكن لأن الطبقة الأرستقراطية عادة ماتكون الطبقة الحاكمة فالكتابة عنها تثير اهتماماً أكبـر وكلامـاً أكثر .. ولذلك رغم أن نسبـة القصص التى تتحدث عن هذه الطبقـة أقل من القصص التى تتحدث عن الطبقات الأخرى إلا أنها أكثر شـهرة لأنها تثير اهتمام الناس .. فـعندمـا أحـدثك مثـلاً – عن ابنة المليونير فـلان التى عمـلت حفلة كلفتـهـا مـائة ألف جنيـه واشترت فستـاناً من مـحل كذا سوف يجذبك المـوضـوع .. أمـا لو حدثتك عن امرأة عـادية ورويت أحداث حياتها فلن تكون مشوقة بنفس القدر ..

وأنا من صغرى لا أنتمى إلى الطبقة الراقية .. أنا تربيت فى المجتمـع العـادى .. مجتمـع الطبقـة المتوسطة من أدناها إلى أعلاها .. ودائماً كنت أحب أن أعرف كيف يعيش الكبراء .. الأمراء والبشوات والبهوات وأصحاب الفدادين .. وكنت طبعاً عندى نفس الإحساس بأنى من طبقة ثانية .. فكنت أحب أن أتعرف بهـم .. وكـان لـى منذ صـغرى أصدقاء من أولاد البشوات والبهوات ..

ورغم ذلك شننت حملة على البشوات فى مقالاتى قبل الثورة .. فالواقع أن أنا عايش بطبيعتى مجتمع الطبقة الوسطى والأقل منها .. لكن قصص المجتمع الأرستقراطى هى التى تثير الضجة دائماً ..

* يقال دائماً إن الإبداع والخلق غالباً ماينبعان من رجل ويستلهمان من امرأة .. هل توافق ؟

– لا .. ليس صحيحاً .. فليس من الضرورى لكى أكتب أن أستلهم امرأة فمن الممكن أن أستلهم رجلاً .. وممكن أستلهم حيواناً .. فمثلاً آخر قصة كتبتها كانت من وحى حمار وكان عنوانها " هو والحمار " .. فالوحى هو مايفجر فكرة .. والفكرة ممكن أن يفجرها أى مظهر من مظاهر الحياة أو أحداث الحياة .. وطبعاً هناك أحداث تدور حول المرأة أوحت إلىّ بقصة .. وأحداث رجالية أوحت إلىّ بأفكار .. وحالات سياسية وحالات اجتماعية .. كل ظروف الحياة أوحت إلىّ بالعديد من الأفكار ..

ليس هذا فقط ، بل إننى نتيجة التأمل والقراءات كتبت قصصاً عن العالم الآخر .. يعنى عن الجنة والنار .. فليست المرأة فقط هى التى توحى .. الحياة كلها توحى بأفكار..

* وهل المرأة قادرة على الإبداع والخلق بنفس مستوى قدرة الرجل ؟

– المرأة لها نفس القدرة على الإبداع والخلق مثل الرجل . لكن المرأة فى المجتمع العربى لاتزال جبانة أمام التقاليد .. فعندما تكتب قصة عن واحد وواحدة بيحبوا بعض متقدرش تقول كل اللى حصل بينهم .. تخاف .. حتى الرجالة بيخافوا ..فمثلاً توفيق الحكيم فى مرة كتب قصة كان فيها صريحا وعرض تفاصيل بين رجل وامرأة .. فهاجوا عليه .. القصة كان اسمها " الرباط المقدس " فكانت النتيجة أنه امتنع من يومها – من أكثر من ٤٠ سنة – عن طرق هذا الموضوع على الإطلاق وأصبح أقرب إلى كاتب رومانسى ..

وترتفع نبرة صوته فى انفعال .. قائلاً :

– أنا مابخفش .. لأنى بأعتبر أننى أرمز للتطور .. وأرمز للصدق . وبعكس ما أتهم به فأنا لا أتعمد الإثارة ولا أتعمد أن أقيس رد فعل ما أكتبه على القارئ .. كل ما أفعله أننى أعبر عن الواقع .. وأعالجه .. ولا أعالج الوهم ..

وبعدى بدأ كثير من الكتاب يأخذون نفس خطى فى الصراحة .. ولكن غلطتهم أنهم يفتعلونها .. أنا لا أفتعل ..

* ويتوقف قليلاً .. ثم يقول :

- ورغم كل هذا .. ورغم اتهامي بأني أكشف تفاصيل المشاعر بصراحة فهذا لا يساوى شيئاً إذا قورن بالأدب العالمي المتحضر .. يعني عندما تقرأين لأكبر كتاب أمريكا - وليست الكتب الرخيصة - كأن تقرأى لهيمنجواى مثلاً وكذلك باقى الكتاب فى فرنسا وإنجلترا ، تجدينهم أصرح منا كثيراً جداً .. والسبب أن مجتمعاتهم تعترف بالواقع .. فأنا لا ألوم نفسى أبداً ولا أتراجع أبداً .. بل أعتبر أنى حققت كثيراً من تطور الأدب العربى كله .. وكثير من الكتاب الآن أصبحوا يأخذون نفس الخط ..

* لو سألت كاتبنا الكبير عن أثر اتجاه " روزاليوسف " السياسى على توجهك السياسى فماذا تقول ؟

ويميل " إحسان عبد القدوس " إلى الأمام .. وبلهجة تأكيد يقول :

- لا .. لم أكن مقيداً أبداً باتجاهات والدتى السياسية .. فرغم أنها كانت صاحبة المجلة .. فلم أكن متبنياً لاتجاهاتها السياسية ولا الفنية .. لأنها كانت تعاملنى على أساس إطلاق حريتى بالتفكير .

* معنى هذا أنها لم تكن " ديكتاتورة " فى فرض رأيها عليك ؟

- لا .. كانت ديكتاتورة بس وهى بتربيني لما كانت ترفض أن أكتب فى الأدب حتى أتفرغ للصحافة ..

* ألم تكن تغضبك إذا عارضتها فى آرائها السياسية ؟

- لا .. كان الفرق كبيراً جداً بينى وبينها .. فكل اتجاهى الثورى كانت مش موافقة عليه .. فقد كنت معتمداً اعتماداً كاملاً على الجيل الجديد وهى مرتبطة ارتباطاً كاملاً بالجيل القديم ..

يعني هى البلد كانت بالنسبة لها عبارة عن مجموعة أحزاب .. وأنا ثائر على كل ده .. يعنى كنا مختلفين جداً .. ولكنها لم تكن تتدخل إلا فى النواحى القانونية فيما أكتب من منطلق الخوف علىّ .. إنما من ناحية تكوين رأيى ، كانت توفر لى مطلق الحرية .. ولم تكن تعاملنى أبداً على أنها صاحبة جريدة .. وهذا ما أعطانى ميزة لم تكن متوافرة لكثير من الكتاب الممتازين .. هذه الميزة هى أننى كانت عندى حرية النشر .. يعنى اللى عايز أكتبه أكتبه وينشر .. وكنت باكتب حاجات جريئة جداً .. لا يمكن أى جريدة ثانية فى مصر تتحمل نشرها .. أما باقى الكتاب كان لازم صاحب الجريدة ورئيس التحرير يوافقان على النشر .. لكن أنا كنت حراً .. أنشر ما أريد ..

وبالعكس .. أنا لكى أثبت أننى غير محصور فى روزاليوسف كنت أنشر فى كثير من الجرائد الثانية .. فكنت أكتب فى المصرى ودار الهلال وآخر ساعة وكل الجرائد .. وهنا كنت أواجه القبول والرفض لأن صاحب الجريدة أو رئيس التحرير يقول لى أحياناً :

- لا يا إحسان .. مقدرش أنشر الكلام ده ..

ولم أكن أزعل من هذا .. فأنا أعطى للناشر حريته كما أعطى للكاتب حريته .. فالناشر أيضاً حر ينشر ما يراه مناسباً لجريدته لأنها مسئوليات ، وكل إنسان له مطلق الحرية فى تقديرها ..

فكنت آخذ مقالاً اعتذر عن نشره " الأهرام " لأنشره فى " المصرى " مثلاً فإذا اعتذر المصرى .. أنشره فى " روزاليوسف " لأنها بتاعتى .. فطريقى إلى النشر كان سهلاً .. أسهل كثيراً من طريق أى كاتب آخر ..

* لو أدرنا شريط الذكريات إلى الوراء .. وسألنا : من هم الأساتذة أو المفكرون الذين كان لهم الفضل على توجيه طريقك .. أو تشجيعك خلال مشوار حياتك ؟

وبنظرة تعبر الحاضر إلى سنوات وأحداث مضت .. قال :

- أنا لا أعتبر أن هناك من له فضل مباشر على فيما عدا عمتى وأمى وزوجتى .. ولكن هناك مئات تأثرت بهم .. وأعتبرهم أساتذة استفدت من كتاباتهم .. واستفدت من تاريخهم ..

* ومن أهم هؤلاء ؟

- أنا من طبيعتى أننى لا أحفظ أسماء أو وقائع محددة .. ولكنى أستطيع أن أقول أن أكثر حاجة استفدت منها هى القراءة ، فقد قرأت الكتب السياسية كلها .. وكتب الأدب كلها .. كل الأدب الروسى والأدب الإنجليزى .. والقصص خصوصاً .. إنما من طبيعتى أننى لا أقرأ بهدف الحفظ واختزان المعلومات .. ولكن أستوعب .. كما لو كنت آكل ما أقرأه .. وكأى طعام ينمى الخلايا كانت هذه الكتب تنمى حسى الأدبى وعقلى وتربيتى الفكرية وتربيتى فى دراسات الحياة . وليس معنى ذلك أن أرتبط بما قرأت أو أحفظه .. بل تحدث عملية هضم ثم نسيان للوقائع أو الأسماء .. أنسى التفاصيل .. فقد عملت مع الأستاذ محمد التابعى وكان واحداً من الأساتذة الذين استفدت منهم جداً ولكنى لا أذكر شيئاً بالتحديد مما كتبه محمد التابعى .. رغم أن كل ماكتبه فى بؤرة التكوين العقلى .. فهناك المؤرخون الذين يهتمون بحفظ ما يقرأون أو ما يجمعون من معلومات .. ولكنى لست مؤرخاً .. أنا منتج أستفيد بالاستيعاب والفهم ليس بالاحتفاظ بالذاكرة أو الاختزان ..

* ويستطرد الكاتب الكبير قائلاً :

- ومن طبيعتى أيضاً أننى ألتقط - فى أى جلسة - وممكن بعد سنة أو سنتين أكتب قصة فأجدنى بلا تعمد أضع جزءاً من شخصية التقيت بها فى لقاء عابر أو مناسبة .. وقد يكون ترسب من هذه الشخصية رأى صدر منها وأعجبنى فى تلك المناسبة وأكتبه دون أن أشعر أننى أقصد إنساناً أو إنسانة معينة ..

* ويضحك " إحسان عبد القدوس " قائلاً :

- ولذلك فكل قصة أكتبها تنسب إلى عشرات السيدات .. ويقولون ده قصده فلانة ..

(لم أحترف شيئاً)

* لو قلنا إن حياة كل إنسان تمر بعدة مراحل .. وحياة الفنان والأديب بصفة خاصة غالباً ماتمر مراحلها بلا ترتيب أو تصاعد فى اتجاه واحد .. فمتى كانت فترات التألق .. ومتى كانت الفترات التى خبا فيها نجم إحسان عبد القدوس ؟ ..

- أنا لم أتعمد .. ولم أفتعل الفن أو السياسة .. فأنا كاتب سياسى .. وكاتب فنى .. ولكن الظروف جعلتنى منذ صغرى أكتب قصصاً .. كيف حدث هذا ؟ كان والدى كاتب قصة وله مسرحيات كثيرة منها مسرحية " إحسان بك " وغيرها .. فكنت أحب أن أقلده منذ كان عمرى خمس سنوات .. وعندما وصلت إلى العاشرة من عمرى أكملت أول مسرحية من تأليفى .. كان اسمها " المعلم علم التلميذ .. طلع لص شريف " ..

وكان تأثرى فى الكتابة بوالدى وبالقصص التى كنت أقرأها لـ " أرسين لوبين " والقصص البوليسية .. كل هذا وجدته فى نفسى .. يعنى لم أتعمده .. واستمريت أكتب قصصاً .. شعراً منثوراً .. آراء .. من صغرى .. لدرجة أنى كنت أمشى وفى جيبى ورقة وقلم .. وأى وقت فاضى عندى أكتب .. يعنى مثلاً رحت السينما ولقيت الفيلم لسه ما بدأش .. فأقف على الرصيف وأكتب حتى يبدأ الفيلم ..

ورغم أننى بدأت حياتى بكتاباتى الأدبية .. فإننى بدأت شهرتى بين الناس ككاتب سياسى .. ولم أتعمد السياسة أيضاً .. ولكنى أعمل بالسياسة من صغرى تلقائياً .. وأعتبر أن السياسة لا تحتاج لاحتراف .. فأنا أعتبر أن أى إنسان سياسى .. فبائع الفول مثلاً تقابله أى مشكلة يهاجم الحكومة .. وأنا أيضاً بدأت حياتى السياسية فى مظاهرات الطلبة والحركات الوطنية .. فلم أفكر فى احتراف الأدب .. ولم أفكر فى أن أحترف السياسة وإنما التيارات التى أحاطت بى وليس لى فضل فيها فى السياسة أنى وجدت نفسى ابن صاحبة مجلة " روزاليوسف " وهى مجلة سياسية .. فأتيحت لى فرصة التعبير عن آرائى فى المجلة .. فأنا من صغرى ولغاية النهاردة لم أحترف أى شئ .. إنما دوافع تلقائية هى التى جعلت منى أديباً وكاتب قصة ، وكاتباً سياسياً ، ورجل سياسة أيضاً .. وكلها دوافع لم أتعمدها .. وحتى الآن أنا لا أعتبر نفسى محترف أدب ولا سياسة .. لأنى باكتب بمزاجى ..

(خناقات مستمرة)

* ويتوقف إحسان عبد القدوس .. ثم يستكمل حديثه قائلاً :

- حتى عندما تخرجت فى كلية الحقوق .. وكنت طالبا متفوقا .. كان المفروض أن أعمل بالمحاماة .. وفعلاً عملت محامياً لمدة سنتين وكنت أتمرن فى مكتب محام كبير اسمه " إدوارد قصيرى " ومن فرط إعجابه بالمذكرات التى كنت أكتبها .. أعطانى الحق فى أن أفتح مكتباً باسمى رغم أننى لم أكن قد أمضيت فترة التمرين المفروضة - وكانت سنتين ..

وفعلاً .. فتحت مكتب محاماة داخل مجلة " روزاليوسف " ووضعت على الباب يافطة كبيرة مكتوب عليها : " إحسان عبد القدوس المحامى " .

وبعد سنتين زهقت من المحاماة .. ورغم أننى كنت مغرماً بكتابة المذكرات القانونية إلا أننى كنت دايما أتخانق مع القضاة لأنى أتصرف تصرفات محام غير محترف .. تصرفات إنسان عايز يعبر عن رأيه بأى شكل .. فالقضية اللى أقتنع بموقف صاحبها لازم أتخانق مع القاضى وأشتم .. فلم أستطع أن أحقق أرباحاً فى الشغلة دى ..

ففى سنتين .. رغم أنى أخذت أكثر من ثلاثين أربعين قضية .. ماخدتش إلا خمسة جنيهات .. لأنها كانت كلها من الأصدقاء فكان معظمها لا أتقاضى عنه أجراً - رغم أننى كنت أكسب معظمها .. بس المشاكل الكثيرة اللى كنت بعملها خلتنى أهرب من المحاماة وأتفرغ لقلمى وحده ..

* وأين نشرت أول مقالة لك ؟

- أنا بدأت فى " روزاليوسف " لأن والدتى كانت تتعمد تربيتى صحفيا .. فلم تكن تريد أن أرث شخصية أبى بأن أكون فناناً مطلقاً فكانت تريدنى صحفياً وليس فناناً ..

* وتطفى على ملامحه الطفولية ابتسامة مشرقة وهو يتذكر شيئاً ما قفز إلى خاطره .. ثم

يقول :

- وفى حادثة ظريفة قوى .. كنت صغيراً أصيف فى الإسكندرية وكانت هى فى القاهرة .. وتصادف أن مرض مندوب "روزاليوسف" فى الإسكندرية فاتصلت بى والدتى فى التليفون وقالت لى : إنت تروح لوكاندة ونسور حتلاقى الوزراء ورئيس الوزراء هناك بيجتمعوا كل ليلة .. روح هناك واسمع منهم الأخبار وابعتهالى .. أنا عايزة أخبار سياسية ..

قلت لها : حاضر ، فقد كنت أقبل لمجرد إرضائها .. وفعلاً ذهبت إلى هناك - ووجدت مجموعة من الوزراء وأهمهم كان هيكل باشا الذى تولى بعد ذلك رئاسة حزب الأحرار الدستوريين .. وكان معهم كامل الشناوى ..

وبكل سذاجة الأطفال .. توجهت إلى هيكل باشا رئيس الوزراء وقلت له : والدتى بتسلم عليك وبتقولك إنها عايزة أخبار ..

فطبعاً هم سمعوا الحكاية دى وهات ياضحك .. وبعد انفجارهم فى الضحك بدأ كل واحد فيهم يعطينى أخباراً فرحين بسذاجتى وتلقائيتى ..

وبعثت الأخبار لوالدتى .. ففرحت جداً وأعطتنى مكافأة كبيرة جداً وقتها .. حوالى ٢٠ قرشاً ..

فبدأت الصحافة بهذا الشكل .. وكانت أمى لا تشجعنى على كتابة أى شئ من الأدب سواء قصة أو شعر خوفاً من أنى أكرر صورة والدى وأكون فناناً فقط .

وجاءت فترة أصدرت فيها والدتى مجلة " روزاليوسف اليومية " عام ١٩٣٤ .. وكنت أيامها أكتب فقرات من الشعر المنثور وعايز أنشر اللى باكتبه فى المجلة .. فقد كان فيها صفحة أدب كان يشرف عليها المرحوم يوسف حلمى .. وحدث أن كتبت قطعة من الشعر المنثور وبعثتها للمجلة بدون إمضاء حتى لا تمنعها والدتى فنشرها يوسف حلمى .. وكانت هذه أول حاجة تنشر لى فى الصحافة المصرية كلها .. وكان عمرى وقتها حوالى ١٥ سنة .. وكان عنوانها " أخيراً وجدها "

وبعد نشرها أخذت الجريدة وذهبت إلى أمى وأنا طاير من السعادة لأخبرها بأننى أنا الذى كتبت هذا .. فإذا بها تثور على وتخصم مصروفى الأسبوعى وكان عشرين قرشاً ..

وبعد هذا عايشت الجو الصحفى والسياسى لسنوات طويلة واستفدت كثيراً من هذا الجو الذى جعلنى أتأمل كل الطبقات والاتجاهات ..

* * *

((وعينت رئيساً للتحرير))

ويتوقف كاتبنا الكبير للحظات .. وكأنه يسترجع شريط الماضى .. ثم يقول :

- إلى أن دخلت السجن لأول مرة عندما كتبت مقالاً عنيفاً ضد السفير البريطانى " اللورد كليرن " وهو كان تقريباً حاكم مصر .. فحبسونى .. ودخلت السجن لمدة أربعة أيام .. ثم أفرج عنى .. ولما خرجت قالت لى أمى : كل رؤساء تحرير " روزاليوسف " دخلوا السجن السياسى .. فأنا عينتك رئيساً لتحرير " روزاليوسف " .. كان عمرى وقتها ٢٥ سنة ..

وتفرغت للصحافة منذ توليت رئاسة تحرير " روزاليوسف " وانشغلت جداً .. ولكن هذا لم يحرمنى أبداً من الأدب وكتابة القصة .. لأن أنا من صغرى وأنا أكتب القصة .. ورغم الوقت الكبير الذى كنت أقضيه فى عملى الصحفى السياسى كنت أتحين أى وقت فراغ لأكتب قصة .. وباعتبارى رئيساً للتحرير .. كان من حقى أن أنشر قصصاً دون تدخل من أمى كما كانت تفعل من قبل ، فبدأت أكتب مقالات سياسية عنيفة جداً مثل " الأسلحة الفاسدة " والنقد العنيف ، وأنشر فى نفس العدد قصصاً مسلسلة .. وهذا خدم " روزاليوسف " جداً لأنه جعل قراء القصص يشترونها وقراء السياسة أيضاً .. وجعلت الجيل الجديد يهتم بالسياسة .. فالفتيات اللاتى كن يقرأن القصة كن يقرأن المقال السياسى أيضاً فتربى لديهن الاهتمام بالسياسة ..

* * *

((متعة طبيعية))

* ولكنى أعتقد أنك تعتبر أن الصحافة هى مهنتك .. والأدب هوايتك .. أليس كذلك ؟

- بالفعل .. الصحافة تعتمد على تزويد الصحفى لنفسه بأكبر كمية من المعلومات العامة .. فوجدت نفسى لازم أفهم فى كل حاجة .. مقدرش أكتب مثلاً عن " الماركسية " قبل أن أدرس الماركسية .. فدرست كل المذاهب السياسية ..

الأدب هو تربية الموهبة الشخصية بحيث يستطيع الأديب أن يعبر ويطور أى فكرة داخله .. وهذا اضطرنى لأن أقرأ كل أنواع الأدب ..

* ويشير الكاتب الكبير إلى مكتبة كبيرة فى الحجرة المخصصة للكتابة والقراءة فى منزله .. ويقول :

- فالمكتبة التى أمامك بها كتب فى الأدب الصينى واليابانى والروسى والأمريكى والعربى ..

* وهل تحدد ساعات معينة للقراءة فى يومك ؟

- ضرورى .. كنت زمان أشتغل الصبح وبالليل .. وكنت أبدأ القراءة الساعة اثنتين بعد نص الليل لغاية الساعة خمسة الفجر .. وأنام من خمسة لثمانية .. لكن دلوقت قسمت يومى .. الصبح أكتب .. وفى الليل أقرأ ..

وأنا باعتبر أن القراءة والكتابة شغل ، ورغم ذلك لا أشعر أنهما واجب .. ولكن أمارسهما كمتعة طبيعية فأنا أشعر بأننى أتمتع عندما أقرأ وعندما أكتب .

* وهل تشعر بمعاناة الكتابة .. أم أن أفكارك تقطع الطريق من داخلك إلى الورق فى سهولة .. بلا تعسر ؟ ..

- هى ليست معاناة .. بل مجهود .. حتى أحدد الموضوع الذى أريد أن أكتب فيه أحتاج لتفكير كثير وقراءة كثيرة .. لأنى دائماً أحدد الموضوع قبل أن أكتب .. وأحدده فى نقاط .. وبعد ذلك أبدأ الكتابة .. فهذه بالنسبة لى هى أوجه المعاناة ..

ويستطرد الكاتب الأديب " إحسان عبد القدوس " قائلاً :

– طبعاً كان زمان بالإضافة إلى هذه المعاناة .. هناك معاناة سياسية .. فمثلاً أنا تعرضت لمحاولات اغتيال أربع مرات واعتقلت أيضاً ..

* وكم مرة تعرضت للاعتقال السياسي ، ومتى ؟

– أول مرة كانت سنة ١٩٤٥ ، وبعدين سنة ١٩٥١ ثم ١٩٥٤ .. يعني اتحبست قبل الثورة وبعد الثورة كمان ..

* ومحاولات الاغتيال كم عددها ؟ ومتى حدثت ؟

– أربع مرات حاولوا يقتلوني لأسباب سياسية .. الملك فاروق بعد عزله وكان مقيماً في مدينة " كان " في " فرنسا " حاول قتلي .. و " عباس حليم " حاول أن يقتلني عندما كتبت الحملة الشهيرة عن " الأسلحة الفاسدة " .. ومرة ثالثة عندما حاولوا الاعتداء عليّ في حزب الوفد .. والقذافي أرسل مندوباً لاغتيالي .. وقبض عليه بالصدفة ..

كلها كنت فيها ملكاً للقدر .. حتى نجاتي من كل هذه المحاولات كانت بأمر الله .. يعني أنا مثلاً أكره أن أمشي وورائي حرس .. في وقت من الأوقات كانت الحكومة تعين عليّ حارساً .. أنا أكره جداً المسألة دي .. فكنت بعد شهر أو شهرين أطلب وزير الداخلية أو رئيس الوزراء وأقول له : أرجوك أنا مش عايز حرس .

* ويضحك " إحسان عبد القدوس " .. ثم يقول :

– رغم أن الناس كانت بتعتبرها أبهة .. لكن أنا مطقش الأبهة دي بقه ..

* وكيف واجهت انحسار الحرية الكبيرة التي كانت بلا حدود وأنت تنشر ماتكتب بلا حدود أو قيود .. عندما توليت بعد ذلك منصب رئيس مجلس إدارة " أخبار اليوم " – وهي جريدة تملكها الحكومة وتعين رئيس تحريرها ورئيس مجلس إدارتها – وماذا كان شعورك وأنت مسئول عن تقييد حرية الآخرين ؟

– هذا ما أصاب الكل .. لست أنا وحدي .. فأنا كنت حراً قبل الثورة حرية تامة .. وساهمت في الثورة مساهمة كبيرة جداً على أساس استمرار حريتي .. إنما فوجئت بعدما حققنا

الثـورة أنها أخذت منى حريتى .. ولم أصبح حراً لا أنا ولا كاتب آخر .. لأن الصحافة أممت .. وأصبحت الرقابة أعنف .. والأحكام على الكتّاب أعنف .. وكل هذا أثر على حريتى جداً .. وحرية تفكيرى ، وجعلنى أغير الكثير من أوضاعى ..

* ولما توليت منصب رئيس تحرير " أخبار اليوم " ؟

- كنت وقتها مقيداً جداً .. إنما بعد تولى أنور السادات الحكم وضعنى كسلطة عليا فى المؤسسة كرئيس لمجلس إدارتها .. وكنت أنا وأنور السادات صديقين ، فقد كان معى فى روزاليوسف وكنا فى البداية مشتركين فى آراء حول مواضيع قائمة .. مشتركين فى الرأى حول الاتحاد السوفييتى .. حول القذافى .. فكان هذا يعطينى حريات مطلقة .. ولهذا رفعت توزيع " أخبار اليوم " من ٢٧٠ ألف نسخة إلى مليون و ٣٠ ألف نسخة .. وهذا أكثر ما أعتز به فى تاريخى الصحفى .. أننى استطعت أنا وزملائى فى " أخبار اليوم " أن نرفع توزيع جريدة إلى أكثر من مليون نسخة ..

* وهل اضطررت لمنع مقال زميل فى هذه الفترة بناء على تعليمات الحكومة ؟ .. وماذا كان شعورك وأنت الكاتب الذى تربى على أن يكون حراً منذ طفولته ؟

- أحب أن أقول أننى أنا الذى طلبت أن أترك " أخبار اليوم " ولم أقال .. وكان السبب أنه حدث بعد فترة أن تباعدت آرائى عن آراء السادات وكانت النتيجة أننى فقدت حريتى .. فعندما أصدر السادات ، مجلة " أكتوبر " مثلاً طلب منى عن طريق رئيس التحرير أن أكتب مقالاتى فى التحليل السياسى وقلت له إن كلامى مش هايعجب السادات .. قال لى : لا .. هـو يعطيـك كامـل الحريـة لتقول ماتشاء .. وفعلاً استمريت أكتب بمنتهى الحرية لمدة سنة أو سنتين ولكن مع تغير الظروف أصبح السادات لا يسمح بهذه الحرية فمنعنى وطردنى من " أكتوبر " ..

يعنى الحريـة الكاملـة هى أن يكون الكاتب هو صاحب الجريدة أو يكون متفقاً اتفاقاً تاماً مع صاحب الجريدة .. وماعدا هذا فلا حرية ..

فأنا كنت فى قمة الحرية لما كنت صاحب المجلة اللى بنشر فيها .. ثم فقدت الحرية درجة درجة لما ارتبطت برئاسة ثانية ..

* فهمت هذا .. ولكنى أكرر سؤالى مرة أخرى بشكل محدد .. هل منعت كاتباً من التعبير عن رأيه خلال فترة رئاستك لأخبار اليوم ؟

- حرية الصحافة فى الواقع هى حرية الناشر .. أنا لما كنت ناشر مجلة " روزاليوسف " كنت واضعاً لها اتجاهاً محدداً وهو الثورية إنها جريدة ثورية .. سواء عبر عنها ماركسيون أو إخوان مسلمون أو رأسماليون .. مادامت مقالات ثورية تنشر .. لما ألاقى مقالات ليست ثورية ، واتجاهات لها أغراض خاصة بعيدة عن الهدف العام كنت أمنع المقال .. وهذا حق كل ناشر ..

بعد الثورة - فى الأوقات التى تحملت فيها حرية النشر كرئيس مجلس إدارة أو رئيس تحرير - أصبحت مقيداً بالسلطة العليا التى عينتنى .. فلما يعينى جمال عبد الناصر رئيساً للتحرير ثم يجئ واحد يكتب ويهاجم عبد الناصر .. مقدرشى أنشر له وأقول له : مش أنا اللى مانعك .. ده عبد الناصر اللى مانعك ..

* وماذا يكون شعورك وأنت تقيد الحرية ؟

- طبعا باكون متضايق .. وأحب أقولك .. أنا من بعد الثورة على طول بدأت أعرف ككاتب قصة أكثر من شهرتى ككاتب سياسى .. لأن القيود السياسية حرمتنى من الحرية وبقيت أجد حرية أكبر فى كتابة القصص لدرجة أننى كتبت قصصاً سياسية لم يكن لها مفعول المقال المباشر رغم الإسقاطات الكثيرة التى كانت تتخللها ..

* وهل كان هذا نوعاً من الهروب من الواقع ؟

- بالطبع ..

* ولهذا يشعر قارئ " إحسان عبد القدوس " أن هناك دائماً تزاوجاً بين الأدب والسياسة .. ففى أى النوعين من الكتابة تجد نفسك أكثر ؟

- لا .. أنا أجد نفسى طول ما أنا باكتب .. لا أستطيع أن أفتعل ، فأنا مثلاً عمرى ماكتبت خطاباً يلقيه رئيس من الرؤساء (يقصد رؤساء الجمهورية) فى حين أن كلهم طلبوا منى ذلك وأنا رفضت .. عبد الناصر طلب والسادات طلب فدائماً كل رئيس دولة له كاتب معين

يكتب له خطبه .. أما أنا مقدرش ، لأنى لا أستطيع التعبير عن شخص آخر .. أنا باعبر عن نفسى فقط ..

* وهل تعتبر نفسك كاتباً للأدب السياسى .. أو بمعنى آخر أنك أخرجت نوعاً معيناً من الأدب يهرب من الواقع بأن تقول ماتريده فى السياسة من خلال قصة عاطفية ؟

– طبعاً ساهمت فى هذا .. وفى الواقع أن الأحداث السياسية تترك آثاراً اجتماعية .. فأنا فى القصة أعبر عن هذه الآثار الاجتماعية ..

* بعد هذه الرحلة الطويلة والحياة العريضة العميقة .. هل لا يزال قلب إحسان عبد القدوس ينبض بالحب ؟

– أنا أعتبر أن سعادة الإنسان لا تتحقق إلا بالحب .. والحب ليس الحب بين رجل وامرأة .. لا .. الحب أعم وأشمل .. وأنا لى تعبير أقول فيه .. إن الحب .. هو حب الله .. وحب الوطن .وحب الإنسان .. فلو عاش الإنسان يحب الله .. والوطن .. وكل الناس من حوله .. فهذا يحقق منتهى السعادة .. وأنا حريص جداً على سعادتى من هذا المنطلق .. فأنا لو زعلت من واحد لدرجة ممكن تؤثر على الحب .. أهجره كله .. كأنه مش موجود فى حياتى .. ليه ؟ .. علشان أحتفظ بالحب داخلى .. وكذلك إذا حدثت لى حادثة شنيعة جداً .. كل اللى أعمله أنى أنساها .. علشان متأثرش على طبيعة الحب .. فسعادتى أنى أعيش أحب كل الناس .. وكل الناس تحبنى .. وأى حاجة تمس هذا الحب أطردها من حياتى .. لدرجة أنى محسش بيها ..

* إحسان عبد القدوس الزوج .. والأب .. والجد .. ماذا يقول عن إحساس الأسرة .. وهل يؤثر هذا الإحساس بالاستقرار وما يصحبه من حياة روتينية على رومانسية وخصوصية الفنان الأديب .. وبالتالى يؤثر على حسه الفنى .. ومن ثم على إنتاجه ؟

– لا .. أنا نشأت طول حياتى مرتبط بالأسرة .. فكما قلت لك .. كنت بأحب عمتى قوى .. اللى اتربيت فى بيتها .. وكذلك كنت أحب أمى جداً .. ثم بعد زواجى أصبحت مرتبطاً ارتباطاً كاملاً ببيتى .. وهذا أنقذنى من إغراءات كثيرة قوى .. ومتاعب كثيرة جداً .. وكان الفضل لهذا هو البيت .. والبيت معناه الأسرة .. أهم حاجة فى الأسرة كانوا أولادى .. وأنا على

فكرة أنجبت وأنا كبير نسبياً لأنى رفضت أن أنجب عندما كنت لا أملك مالاً يكفى لأن أربى أطفالى كما أحب .. فلما جاءت الفلوس .. خلفت .. وتوقفت عن الخلفة لأن فلوسى لم تكن تكفى لأكثر من اثنين .. وكانوا " أحمد " و " محمد " .. وده اللى بنصح به كل رب أسرة .. أن ينجب بقدر ما تسمح إمكانياته فقط ..

((ولا عبد القدوساوية واحدة))

* ويستطرد الكاتب الكبير قائلاً :

- بعد كده الأولاد كبروا وتزوجوا .. وانشغلوا عني .. وأصبح الآن أحفادى هم اللى بيكملوا عندى فرحة العيلة وهم - بترتيب السن - " كريم " و " مودى " و " شريف " ..

* ويصحبني " إحسان عبد القدوس " إلى مكان صور الأسرة في حجرته الخاصة بالكتابة والقراءة بمنزله .. لأرى صور الأحفاد .. ويقول وابتسامة طفولية تعلو وجهه :

- برضه ثلاثة أولاد .. كان نفسي في بنت .. ودايما أقول : مفيش ولا عبد القدوساوية واحدة ؟!

* لو كنت أنجبت بنتاً .. هل كنت تتمنى أن تكون " روزاليوسف " الصغيرة ؟

- ياريت .. كنت سأعطيها مطلق الحرية .. ودايماً بيقولوا أن آرائي متحررة لأني معنديش بنات .. ولكني أقول أن لي زوجة ولي زوجات أبنائي والعيلة فيها بنات كتير .. وبالعكس أنا لما كبرت في السن أشعر بالحزن الكبير لأن ربنا لم يعطني بنتاً .. لأن البنت أكثر ارتباطاً بالعيلة من الولد .. وبأحسد كل أصدقائي اللي مخلفين بنات .. لأن بناتهم بيدلعوهم .. لكن أنا محدش بيدلعني .. وفرحتي الكبيرة الآن بأحفادى ..

يحيى حقى

هناك نزعة غريبة جداً عند الإنسان .. اسمها نزعة الاعتراف .. تكمن هذه النزعة فى الشعور بالذنب .. وهو الشعور الذى يجعل الإنسان يريد أن يعترف .. وهذه النزعة تلازمها نزعة أخرى عند الفنان هى الرغبة فى التعبير عن الذات والقدرة على هذا التعبير . وأنا أزعم أن لدى الرغبة والقدرة على التعبير . ولهذا أكتب .

يحيى حقى



الفصل الأول

ليست هناك رائحة تفوح من كتاباتى أقوى من رائحة الغورية

قالوا عنه : إن ثقافته مزيج من باريس والقاهرة . وفى كلماته رائحة عطور الحسين وبخور الغورية .

وقالوا : إن يحيى حقى وهو يقدم لك بعباراته الرشيقة آخر صيحة فى عالم الفكر تجده فى نفس الوقت يقدم لك قلعة الكبش والإمام والمغربلين .

وقالوا عنه : إنه ضليع فى الترجمة وهو الكاتب الذى ينطبق عليه عبارة أنه " إذا ألف ترجم وإذا ترجم ألف " .

إنه أديبنا المعروف .. شيخ القصة القصيرة .. يحيى حقى . الأديب الذى استطاع تصوير الواقع المصرى بدقة متناهية فى قصته الشهيرة " قنديل أم هاشم ".. وصاحب القلم الذى غاص فى أعماق الشخصية المصرية .. فحللها .. ورسمها بكلماته وكأنه رسام موهوب ينقل الصورة بتمكن . لكن يحيى حقى عندما يرسم لوحاته الأدبية لا ينقل الملامح التى يراها كل الناس وإنما يأخذ القارئ معه فى رحلة داخل أعماق شخصياته ويتجول معه بسلاسة وصدق فى دهاليزها .

والآن سوف نحاول أن نفعل نفس الشئ ونبحر فى أعماق الإنسان داخل الفنان .

ونتمنى أن نعثر على اللؤلؤ المخبوء فى أعماق بحار كاتبنا القدير .. يحيى حقى .

بادرته بسؤال بدا غريباً بعض الشئ :

* لماذا تكتب ؟

ويرسل يحيى حقى بنظرة تأمل للحظات .. ثم يقول :

– هناك نزعة غريبة جداً عند الإنسان .. اسمها نزعة الاعتراف .. تكمن هذه النزعة فى الشعور بالذنب .. وهو الشعور الذى يجعل الإنسان يريد أن يعترف .. وهذه النزعة تلازمها نزعة أخرى عند الفنان هى الرغبة فى التعبير عن الذات والقدرة على هذا التعبير . وأنا أزعم أن لدى الرغبة والقدرة على التعبير . ولهذا أكتب .

* لماذا لم تكتب الرواية الطويلة ؟

- الله سبحانه وتعالى أعطى كل منا السعادة فى شكل من الأشكال .. أعطى واحداً مالاً .. وأعطى آخر صحة .. وهكذا ..

والرواية الطويلة محتاجة لخيال واسع .. لم ينعم الله علىّ به ووجدت نفسى ميالاً للتأمل .. تأمل نظرة عين .. زهرة .. طائر .. حيوان .. ثم وجدت عندى أيضاً القدرة على أن أجد فى اللغة العربية الفصحى التعبيرات وترتيبات الجمل ووحى الألفاظ مما يعطى القارئ نفس الانطباع الذى حدث فى قلبى .. فهذان هما العكازان اللذان أستند إليهما فى إنتاجى .

قال د . على شلش .. الناقد الأدبى ذات مرة : إن أدب يحيى حقى مازال فى الحقيقة مجهولاً وغير مكتشف .. فإن مانشره من كتب لا يمثل واحداً على عشرة من كتاباته المتناثرة .. فهل هذاصحيح ؟

صحيح مائة بالمائة .. ولكن هذا الموقف صحح أخيراً .. عندما اتفق معى د . الشنيطى - وكان وقتها رئيساً للهيئة العامة للكتاب - على إعادة طبع أعمالى كاملة فى١٧ كتاباً . وهذا مابدأته الهيئة معى ثم تابعت هذا العمل الكبير بنشر المجموعة الكاملة لأعمال كبار الكتاب أمثال يوسف السباعى ويوسف إدريس وثروت أباظة وغيرهم .

وهذا فى رأيى عمل هام جداً .. لأن معظم أعمالنا الأدبية طبعت فى الماضى طبعات شعبية .. وكانت تباع على الأرصفة وعلى سور الأزبكية .. وليست فى المكتبات .. ولذلك فقد فقدت هذه الأعمال بالنسبة لأى قارئ يريد أن يدرس أدب أى كاتب من هؤلاء .. وكذلك أمام الحركة النقدية الموجودة واللازمة لوجود حركة أدبية .. فالناقد لابد أن يجد الكتاب تحت يده حتى يستطيع أن يحلله وينقده .

ويستطرد الكاتب يحيى حقى .. قائلاً :

ولذلك فأنا أحيى هيئة الكتاب على هذا العمل العظيم الذى تقوم به من أجل الحفاظ على الإنتاج الفكرى لأدبائنا وحمايته من الزوال والاندثار وأشكر بكثير من التقدير صديقى العزيز فؤاد دوارة - الناقد المسرحى المعروف - لأنه اقترح أن يتولى منفرداً وبدون أى إعانة منى .. مهمة البحث عن هذه المقالات .. ومراجعتها ونسخها بعد تصحيحها من الأخطاء المطبعية .. فهى مقالات ولوحات أدبية .. كنت قد نشرتها فى جرائد ومجلات مختلفة ..

وقام فؤاد فعلاً بمجهود كبير جداً ، فقد قسم هذه المقالات إلى أقسام تضمن وحدة الكتاب الواحد .. من حيث الأفكار والموضوعات التى تناولتها تلك المقالات .. وكذلك كانت هناك نقطة أخرى هامة .. وهى أن هذه المقالات نشرت منذ أكثر من عشرين سنة .. ولابد أن بعض موضوعاتها لم تعد صالحة للنشر الآن .. وكانت تلك مهمة أخرى أضيفت إلى الأستاذ فؤاد دوارة الذى راجع كل المقالات ووجد أن معظمها لايزال صالحاً للنشر .

* لو تكلمنا عن الترجمة .. فدعنى أسألك عن دور الترجمة فى نظرك فى إحياء الأدب والإبداع العربى ؟

– للترجمة أهمية كبيرة جداً لأكثر من سبب .. أولاً : الانفتاح على الآداب الأجنبية والفكر العالمى .. ثانياً : إحياء اللغة العربية .. بمعنى أن البحث فى قواميس اللغة العربية عند ترجمة أى عمل أجنبى يكشف أسرار هذه اللغة .. ويدرك المترجم أن اللغة العربية لغة ثرية جداً جداً .. ولكن هذا الثراء كان عبئاً علينا بحيث يصعب الإلمام بكل مفرداتها ومرادفاتها ..

فالكاتب عندما يكتب مقاله ويتعثر فى إيجاد جملة تعبر عن معنى فهو يستطيع أن يبحث عن جملة ثانية .. لكن إذا ترجم التزم أمام ضميره وأمام المولى سبحانه وتعالى أن يكون مترجماً أميناً دقيقاً .. فلا بد أن يبحث إلى أن يجد المقابل العربى للفظ الأجنبى .

ويضيف الكاتب يحيى حقى قائلاً :

– ويجب أن نذكر أن عندنا تاريخاً كبيراً فى الترجمة بدأ من أيام المأمون .. وفى العصر الحديث كان من رواد حركة الترجمة إبراهيم عبد القادر المازنى .. الذى كان يبهرنى وأنا أراه يترجم مباشرة ويده على الآلة الكاتبة .. يقرأ ويداه تضربان على مفاتيحها .. أما أنا فكنت أحيانا أخبط رأسى فى الحائط لأننى أبحث عن معنى كلمة أعرف معناها ولكنى أبحث عن اللفظ المقابل بالضبط .

ويستكمل كاتبنا الكبير شرحه لصعوبة الترجمة .. قائلاً :

– وقد يتصور البعض أن ترجمة المسرحيات أسهل .. ولكنها على العكس .. أصعب جداً .. لأن لغة الحوار متشبعة ومعجونة بالمصطلحات الشعبية وتعبيرات كل شعب .. والإيحاءات الخاصة التى لايفهمها إلا أهل هذا البلد نفسه .. وحتى لو حاولت إيجاد تعبير

شعبى يقابله .. تواجه بصعوبة بالغة ..

* وهل هناك علاقة بين قضيتى الاهتمام بالترجمة وإحياء التراث العربى .. أو بمعنى آخر .. هل ترى تعارضاً بينهما ؟ ..

– لا .. على العكس .. فالتراث العربى هو مادتنا الأولية ولغتنا العربية من أقدم اللغات فى العالم .. ومن أثراها أيضاً .. واللغة العربيـة مقدسـة أيضاً لأنها مرتبطه بالقرآن .. ونحن محتاجون لكى نعرف القيمة الكبيرة للغة العربية أن نرجع إلى الوراء ١٤ أو ١٥ قرناً ، أن نقرأ القرآن .. وأن نقرأ الشعر الأموى والعباسى والشعر الجاهلى ..

ويستطرد يحيى حقى قائلاً :

يعنى لو قارنت بين شاب عربى مثقف وشاب إنجليزى مثقف .. تجد أنه مستحيل أن يمد الشاب الإنجليزى يده إلى أرفف مكتبته ويخرج كتاباً عمره أربعة أو خمسة قرون إلا إذا كان متخصصاً .. لكن المثقف العربى من السهولة أن يجد كتاباً عمره أكثر من عشرة قرون ..

ولكن ربما المشكلة التى تواجه اللغة العربية هى مشكلة المصطلحات العلمية .. فلم يكن عند العرب مثل هذه المصطلحات ، مثل التلكس والتلغراف والكمبيوتر .. فهذا يمثل شيئاً من الارتباك .. فإما أن نأخذ اللفظ الأجنبى كما هو .. أو نحاول أن نجد له مقابلاً فى اللغة العربية ..

* ثقافتك .. هى مزيج من القاهرة وباريس ولذلك فإن كتاباتك تفوح منها رائحة عطور الحسين وبخور الغورية .. فما قولك ؟

– ليست هناك رائحه تفوح من كتاباتى أقوى من رائحة الغورية .. أنا لست إلا غورياً مائة بالمائة .. فأنا مولود فى حى السيدة زينب .. ولهذا كتبت " قنديل أم هاشم ".. فجذورى الأساسية نمت هنا .. وهى التى تؤثر فى كل ما أكتب .

* لماذا اخترت جامعة المنيا بالذات لتهديها مكتبتك ؟

– لأنها الجامعة التى منحتنى تقديراً عظيماً .. عندما منحتنى الدكتوراه الفخرية ..

* وماهو شعورك وأنت تحصل على وسام الفارس الذى منحته لك وزارة الثقافة الفرنسية عام ١٩٨٥ ؟

– هو شعور أى إنسان يلقى التقدير الأدبى بعد جهد كبير ويجد من يقول له : شكراً ..

* فى كتابك الأخير " هموم ثقافية " تقول : إننا نتعلم ولكننا لانتثقف .. فما هو مفهومك للتعليم والتثقيف ؟ وكيف تنمى حب الثقافة من جديد فى أجيالنا المقبلة ؟

– أنا رأيى ألا نخضع لربط الثقافة بالكتاب .. بل أعلم الأطفال منذ طفولتهم الاتصال بالكون وبالطبيعة .. فهى أهم مصدر من مصادر الفنون والثقافة والوعى .. فليست الثقافة بين الكتب فحسب .. بل إن الاستغراق فى القراءة فقط يعتبر خطأ كبيراً .. لأن ذلك يبعد الإنسان عن الاتصال بالكون وبالحياة من حوله .. كذلك لابد أن يكون هناك صلة بين الفنانين من مختلف أفرع الفن حتى يثرى كل فن بالفنون الأخرى .

أنا أعتبر المسرح من أهم الفنون .. لأنه لايمثل ظاهرة فنية فقط .. بل هو ظاهرة اجتماعية أيضاً .. فرب الأسرة يصطحب زوجته وأولاده ويذهبون إلى المسرح .. أى أن هناك مشاركة أسرية فى الإحساس بهذا العمل الفنى .. والمسرح يخاطب المشاهد رأساً .. والمسرح قديماً اعتمد على الغناء لجذب الناس إليه .. ويرجع الفضل إلى الشيخ سلامة حجازى فى أنه أول من جر رجل المرأة المصرية إلى المسرح .. ثم كان يوسف وهبى بفواجعه ومآسيه .. بعد ذلك رأينا المسرح الفكاهى الذى يهدف للإضحاك فقط .. ولكننا نرجو أن تتطور هذه النوعية وتقدم المسرح الهادف ..

* وماهى عناصر هذا المسرح الهادف الأساسية ؟

– الصدق .. والإيمان برسالة المسرح .. وتقديم الاستعبار من خلال الأعمال المقدمة .. وهذا فى رأيى نوع من التثقيف النفسى ..

* إذا سألنا يحيى حقى .. ماذا تقرأ الآن ؟

– أنا فى الحقيقة أقرأ بصعوبة جداً الآن .. وزوجتى تقرأ لى ويغنينى الراديو .. فعندنا برنامج ثقافى هو البرنامج الثانى يقدم مادة ثقافية جميلة جداً .. ويقدم نقداً من المجلات العالمية والعربية لأحدث الكتب والدراسات والمؤلفات ..

* ويتوقف شيخ القصة القصيره للحظات .. ثم يقول :

– وأنـا مغـرم الآن بإذاعة القرآن الكريم .. خاصة البرنامج العظيم الذى يقدمه الشيخ " حبه " هذا الرجل متبحر فى علم اسمه علم " التجويد فى القرآن " .. وهو علم يعلمك كيف تنطقين الكلمة فى القرآن .. علم خطير .. ورجل عظيم الذى يقدم البرنامج .. لدرجة أننى أتمنى أن أراه لأقبل يده لهذا العلم الوفير الذى أستقيه منه .

* وماذا تسمع أيضاً فى الإذاعة ؟

– أستـمـع فـى الصبـاح المبكـر جـداً إلى أكثر من خمس إذاعات أجنبية وعربية ومصرية لمتابعـة المـوقف العربى والعالمـى .. وأحب أن أستمع إلى مشاكل الناس من خلال برنامج (همسة عتاب) ..

* وكيف تقضى وقتك ؟

– أزور المعـارض الفنية وأذهب مع زوجتى إلى مكتبة مصر الجديـدة .. وهـى مكتبة عظيمة بها كتب قيمة جداً .. وكذلك نذهب إلى المركز الثقافى الفرنسى لمتابعة الحركة الثقافية والفنية هناك ..

* لو سألنـا يحيى حقى .. بمن تأثرت من الكتاب العرب أو العالميين .. فماذا تقول ؟

– تأثرت بكل الكتاب من امرئ القيس وحتى الآن .. ولكن ابن المقفع عندى هو أستاذ الأسـلوب النثرى .. وبلـغ القمـة فى " كليلة ودمنة " .. والجاحظ طبعـاً هو إمـام الأسلوب العربى ..

أما بالنسبـة للكتاب العـالميين فأنـا أحب جداً " بيتـون سـتـارتجى " وهو مؤرخ وأديب إنجليزى .. وأستمتع جداً بكتاباته لأننى أشعر أن أسلوبه وكأنه موزون بميزان من ذهب ..

ويستطرد الكاتب الكبير قائلاً :

وأنا عموما متأثر بالأسلوب الإنجليزى أكثر من الفرنسى لأنه يعتمد على الخط الذى أحبه فى الكتابه .. وهو التحليل والوصف .

الفصل الثانى

علمتنى الحياة أن
أقدر قيمة الحزن

وهنا .. عرجت بالحديث مع الكاتب الأديب يحيى حقى فى اتجاه الدائرة الممنوعة .. وحاولت النفاذ إلى الإنسان الذى يعيش داخله .. ونجحت محاولتى وفتح الكاتب القدير قلبه ليروى شريط الذكريات .

ابتسم يحيى حقى ابتسامة هادئة .. وأطلت من عينيه نظرة متأملة .. شاردة وكأنها تسبح فى الماضى ثم بدأ يتكلم :

– كنت دائماً أفضل ألا أقترب من الحديث عن حياتى الخاصة ولكننى قبلت أخيراً .. وأتمنى أن يكون كلامى هذا عبرة لمن يعتبر .. فقد تزوجت مرة من مصرية ومرة من أجنبية وفى كلتا الحالتين فإن الزواج لايزال كما يقول أهل بلدنا " قسمة .. ونصيب " ويقولون أيضاً إنه مثل البطيخة تشتريها ولا تدرى ماذا بداخلها ؟ ..

ويتوقف قليلاً .. ثم يقول :

– وسأبدأ برواية قصة زواجى من المصرية .. كان اسمها – رحمها الله – نبيلة سعودى وأنا كنت فى ذلك الوقت موظفاً فى وزارة الخارجية فى درجة سكرتير أول أو ثان .. لا أذكر بالضبط .. وكانت حالتى تشبه حالة كثير من أعضاء السلك الدبلوماسى حينما يسافرون إلى الخارج صغاراً .. ويظنون أنهم سيجدون من الحرية مايخفف عنهم عبء ضرورة الزواج بسرعة فيخرجون وهم متبحبحون .. ثم يحدث أن يشعروا بعد عودتهم فى فترة خدمتهم فى البلد المكلفين بالعمل به بضرورة الزواج .

والزواج الدبلوماسى له شروط ومتطلبات معينة .. فلابد أن تكون العروس لديها القدرة على مخالطة الأجانب ، ومعرفة بلغة أجنبية ، وكذلك معرفة بآداب الاستقبال وآداب المائدة .. إلى آخره .. فتتجه أنظار هؤلاء أول ماتتجه إلى خريجات المدارس الأجنبية ، وما أكثرها فى بلادنا ، بين فرنسية وإنجليزية وألمانية وإيطالية .. ثم ينتقل تفكيرهم إلى مرحلة أعلى فيبحثون عن فتاة أمها أجنبية ووالدها مصرى مسلم حتى تجمع بين معرفتها التامة باللغة الأجنبية إلى جانب التزامها بالتقاليد والقيم الإسلامية .

* ويستطرد يحيى حقى قائلاً :

– كان هذا هو وضعى .. ولكننى أؤكد لك أننى لم أشهد شيئاً من هذا .. إنما كان أملى

أن أجد فتاة ربيت تربية إسلامية صحيحة في بيت محتشم .. والغريب أننى لم ألجأ إلى الخاطبة بل لجأت إلى محيط أصدقائى .. وفعلاً جاءنى صديق بعد فترة .. وقال لى أنه وجد لى الفتاة المطلوبة .. ودبر هذا الصديق مقابلة .. وكأنها جاءت بالصدفة .. كانت هذه المقابلة فى نادى المعادى .. فلما ذهبت وجدتها فتاة - لحسن الحظ - أطول منى إلى حد ما .. لأننى كنت أشترط أن تكون طويلة حتى لا ننجب أولاداً من لاعبى السيرك فى المستقبل !

* ويعود بنظرته سنوات طويلة إلى الوراء .. وهو يتذكر مواقف هامة فى حياته .. ثم يقول :

- وبمجرد أن رأيتها .. وتأملت شكلها ونظراتها .. وحركات يديها أحسست أنها دخلت قلبى .. وقلت : نعم .. أتزوج هذه الفتاة .

وفعلاً تمت إجراءات الخطبه بسرعه وتزوجتها .. وأذكر يومها أننى قلت لها : " إياك أن تقبلى الزواج منى لأنى موظف بوزارة الخارجية .. ولأنك ستخرجين للحفلات والسهرات .. وأرجوك أن يكون حكمك على شخصى بعيداً عن وظيفتى .. فلا تخطئين فى حق نفسك " ..

وابتسمت لكلامى .. وطمأنتنى .. وتم الزواج .

* قلت لشيخ القصة القصيرة :
وكيف سارت حياتكما معاً ؟

قال :

- لا أستطيع أن أحكم عليها .. لأنها - ولسوء الحظ - مرضت بعد زواجنا بثلاثة شهور ، أصيبت بمرض من أشد الأمراض خبثاً .. عانت منه لعدة شهور .. ثم توفت بعد أن تركت لى ابنتى الوحيدة " نهى " .

وتعلو نبرة التأثر فى صوته .. وهو يتذكر العذاب الذى عانته زوجته الأولى .. فيقول :

- تعذبت عذاباً شديداً .. ومررت وقتها بأزمة كبيرة .. فقد رأيت بعينى كيف يدب الموت فى الجسد من الرأس إلى القدمين .

* وهل كانت الفترة القصيرة التى أمضيتماها معاً قبل مرضها سعيدة ؟

- يجب أن أذكر لزوجتى الأولى الخصال الكريمة التى أكبرتها فيها ولا أزال .. فقد كانت رحمها الله قنوعة جداً .. وهبها الله صفة الرضا بسهولة وهى صفة نادرة فى النساء .. فأذكر مثلاً أنها طلبت منى مرة أن ننزل لنشترى برنيطة .. فتوقعت أن تستغرق عملية الشراء هذه فترة لا تقل عن ساعة ونصف داخل المحل الكبير .

ولكنى فوجئت بها تدخل وتمسك بإحدى البرانيط وتضعها فوق رأسها ثم تقول لى هذه هى التى أريدها ..

ويستطرد قائلاً :

- استغربت حقيقة .. فقد كانت البرنيطة التى اشترتها فعلاً هى أجمل مايناسب وجهها ، وشعرت وكأن هناك موعداً كان قد تم بينهما .. هى والبرنيطة وجاءت فى هذا الموعد .

ووجه الاستغراب هنا نابع من أننى كثيراً ما أراقب سيدات كثيرات .. خاصة فى محلات الأحذية . وأرى كم من الوقت تستغرقه عملية الاختيار التى تعد من أصعب المسائل عند الكثير من النساء .

وألحظ فى عينى الكاتب الكبير نظرة حزن عابرة .. ويتوقف عن الكلام قليلاً .. ثم يكمل حديثه قائلاً :

وأذكر وأنا فى شئ من الخجل أننى أرثيتها بمقالة نشرت فى مجلة الثقافة .. وأنا خجل ونادم .. لأننى أعتبر أننى إذا كنت صادقاً فى حزنى عليها ماكان ينبغى لى أن أخلو إلى نفسى .. وأتدبر كيف يكون الكلام .. إلى آخره ..

* ويصدر تنهيدة مكتومة فى صدره .. وهو يقول :

ولكنها خرجت ونشرت .. وبعد بدأت أتتبع أعمدة الوفيات التى تنشر فى جرائدنا وأجد السطور المكتوبة فى نعى الزوجات لأزواجهن أو الأبناء لأمهاتهم .. وأشعر بالمرارة لما يحدث عندنا .. فالواجب أن نقدر قيمة الحزن .. وندرك أن هذه العواطف يجب أن تكون مكتومة .. لأن نشرها على الناس يضيع جلالها وقدسيتها .

* قلت لشيخ القصة القصيرة :

هل تسمح لى أن نغير الموضوع .. وننتقل إلى قصة زواجك الثانى .. والذى أحدث ضجة عندما تم .. وقالوا عنك أنك – مع الفارق طبعاً – أشبه بالملك إدوارد ملك إنجلترا الذى ترك العرش من أجل حبه ..

ويبتسم يحيى حقى ابتسامته الهادئة .. ويقول :

– بعد وفاة زوجتى سافرت إلى باريس للعمل فى سفارتنا هناك .. وقابلت زوجتى الثانية .. حدث بيننا تقارب وتفاهم كبيرين .. وقلت نِعم الزميلة ونِعم الشريكة لحياتى ومستقبلى .. وكنت أعرف أن زواجى بها ليس سهلا .. لأنها فرنسية .. ووقتها كان قد صدر قانون بمنع المشتغلين بالسلك الدبلوماسى من الزواج بأجنبيات .. وحكم على المتزوجين من أجنبيات قبل صدور هذا القانون بترك العمل فى السلك الدبلوماسى..

ويسكت الكاتب الكبير يحيى حقى لحظات .. وتبدو على وجهه عبارات أسى .. ثم يقول :

وفى هذه المواقف يتأمل الإنسان الطبيعة البشرية وكيف تكون . لا أريد أن أذكر أسماء .. ولكننى أستعيد ذكرى مؤلمة .. فقد وجدت زملائى فى ذلك الوقت يطلقون زوجاتهن إيثاراً للبقاء فى السلك الدبلوماسى عن الوفاء لشريكات العمر !

* وماذا فعلت أنت ؟

– أنا صممت أن أرتبط بالإنسانة التى أحببتها .. وأحسست معها بالارتياح .. وفعلاً تزوجنا وتركت السلك الدبلوماسى .. وانتقلت للعمل بوزارة التجارة والصناعة .. ثم عينت بعد عدة سنوات مديراً لمصلحة الفنون .

كانت زوجتى متزوجة من زوج سابق ولها ولدان .. وكانت منفصلة عن زوجها .

* وإذا سألتك عن عيوب الزواج من زوجة أجنبية .. فماذا تقول ؟

– هناك عقبات كثيرة اعترضتنى أنا وزوجتى الفرنسية ناتجة عن الإجراءات التى لابد من استيفائها من فترة لأخرى لتجديد إقامتها كل ثلاث سنوات .

وأعتقد أن عيوب الزواج من أجنبية تتمثل فى القوانين والتعقيدات التى تضعها بعض الدول

فى مثل هذه الحالات .. ولا تكمن فى جوهر الزواج نفسه .. فزوجتى الفرنسية فتاة مهتمة بتاريخ الفن .. تتابع المعارض .. وعلى علم بحركة النشر والتأليف فى العالم .. وبعد زواجنا اكتشفت فيها مواهب فنية كثيرة .. فهى نحاتة عظيمة .. تشكل السيراميك فى تماثيل وأشكال رائعة .. وبسهولة وسلاسة دون أية معاناة .. وهى تكتب أيضا ولا أخفيك سراً أننى أشعر فى بعض الأحيان بالغيرة من المستوى العالى لموهبتها سواء فى الكتابة أو النحت .

* ويصف يحيى حقى زوجته بإعجاب شديد .. فيقول عنها :

– وزوجتى ملتحمة بالطبيعة التحاماً تاماً .. وأنا فى الحقيقة لم أجد مثل هذا الالتحام فى كثير ممن عرفتهم من المصريين أو غير المصريين .. فهى مثلاً دائمة البحث عن الزهور .. وبالإضافة إلى التحامها وحبها للطبيعة فهى منظمة جداً .. دقيقة جداً .. عندها رغبة دائمة فى الوصول إلى الكمال فيما تفعله ، لا تؤجل أى عمل إلى الغد .. بل تنجز كل شىء فى وقته ..

ويقول يحيى حقى :

– ولذلك .. فقد كان وجودها هاماً جداً فى حياتى .. «اللى كلها سبهللة» !

* قلت :

بعد هذه السنوات الطويلة التى قضيتها مع زوجتك الفرنسية ..ماذا تقول عن الزواج فى حياة الفنان أو الأديب .. هل هو نعمة .. أم نقمة ؟

– أظن لو أننى استعرضت فى ذاكرتى أسماء كبار الكتاب والفنانين فسوف أجد معظمهم متزوجين .. ممكن " يبدلون الزوجات " لكن تمر فى حياتهم فترات كثيرة وهم متزوجون .. فالبنى آدم قبل أن يكون فناناً .. فهو إنسان يحس بحاجته إلى الاستقرار .. وخلال حياته لابد أن يلتقى بالشخص الذى ينجذب إليه فيتزوجه ..

ويستكمل الكاتب الكبير كلامه .. قائلا :

– أما بالنسبة لى شخصياً فقد أفادنى الزواج جداً .. فزوجتى قرأت جميع محتويات مكتبة المركز الفرنسى هنا فى مصر .. وهى خبيرة فى الأدب النرويجى والسويدى والفنلندى .. فكانت تقرأ علىّ – ولا تزال – كثيراً من هذه الأعمال .. وبواسطتها أتابع الكثير جداً من

حركات الأدب فى العالم .

* وعندما نتكلم عن الابنة الوحيدة " نهى " .. هل ورثت موهبة الأدب عن والدها الكاتب الكبير يحيى حقى .. ولماذا أهديتها كتابك الأخير " كلام فى الحب والناس والمجتمع والدنيا " ؟ ..

- " نهى " تعمل الآن معدة برامج بالتليفزيون .. وابنتى هذه تجرى دماء مختلفة فى عروقها .. فهى مصرية .. فلاحة .. إنجليزية .. عربية .. تركية .. نسبة إلى أجدادها من أمها ومن أبيها ..

أما بالنسبة لموهبة الأدب .. فهى عندها استعداد أدبى جيد وأخيراً أنتج التليفزيون قصة كتبتها اسمها " اللقاء الثانى "

وقد أهديت " نهى " كتابى الأخير لشعورى بأن هذا ما كان يجب عمله من زمان .

* بعد أن كلمتنا عن " نهى " الابنة .. فماذا عن الأم فى حياة أديبنا يحيى حقى ؟

- كان لأمى دور كبير جداً فى حياتى .. وقد تأثرت بشخصية والدتى جدا .. لأنها كانت سيدة متدينة .. وثانياً كانت تجيد القراءة والكتابة لأنها تعلمت فى الكُتّاب فى قرية المحمودية بمحافظة البحيرة .. وأنا شخصيا مهتم جداً بالكتاتيب فى مصر . فالتعليم فى الكُتّاب كان عظيماً .. والفارق شاسع بينه وبين التعليم الأولى الآن .

نعـود إلى أثر والدتى .. فأقول إنها كانت قارئة جيدة جداً تقرأ الشعر وتتلو القرآن الكريم .. ربتنا على صفة ممتازة جداً هى أن نحافظ على شعور الناس ولا نخدشه أبدا حتى ولو على سبيل المرح أو الدعابة .

* ويبتسم الكاتب الكبير ويقول :

- أذكر أننى ضحكت يوما عندما رأيت سيدة بدينة .. فغضبت منى أمى وكانت حزينة جداً لأننى فعلت ذلك .

ولذلك .. فقد أخذت عنها هذه الصفة الجميلة .. وهى أن أحاول إراحة أىَّ إنسان أمامى ..

وألاّ أضايق أحداً مهما كلفني ذلك من ضغط على أعصابي في بعض الأحيان .

وهذه الصفة أفادتني كدبلوماسي جداً .. وأفادتني أيضا في قبول واستيعاب تصرفات الناس .. بتركيباتهم النفسية المختلطة .. وهذا بالطبـع انعكس في كتاباتي التي يغلب عليها التحليل والتأمل .. وفوق هذا وذاك فقد أفادتني كإنسان .. أتسامح وأبرر تصرفات الناس .

رقم الإيداع

٢٠٠٢/١٣١٩٥

I.S.B.N. 977-01-7943-4

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

لقـــد أدركنا منذ البداية أن تكوين ثقافة المجتمع تبدأ بتأصيل عـادة القـراءة، وحب المعـرفـة، وأن المعـرفـة وسيلتها الأساسية هى الكتـاب، وأن الحق في القـراءة يماثل تمامـاً الحق فى التعليم والحق فى الصحـة.. بل الحق فى الحياة نفسها.

سوزان مبارك





مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الثمن ٢٠٠ قرش